قصص قصيرة

نصف الهدف

بقـلـم

سـيفي سـيفي

2004م

السـجين

مضت عليّ شهور طويلة وأنـا مرمـي فـي زنزانتـي الانفراديـة ذات المربـع الواحـد، رثّـت خلالهـا ملابسـي.. وطالت لحيتي.. وهزلـت بنيتـي.. واصـفر لـوني.. وبـرزت عظام وجهي.. وبات نـومي لا يختلـف عـن يقظتـي.. ولا نهاري عن ليلتي.. لا يعكر صفو بحـر السـكون حـولي إلا طنين أذني..

اعتادت قدمي الثني والالتواء بين تربيع وقرفصـاء.. خشـيت عليهـا كثـرة تكويرهـا.. فـدفعتني آلامهـا لابتـداع حركات غريبة مارستها غير مبال برائحة المكـان وجيفتـه، فبعد كل هذه الشهور، أصبح مكاني كحمـام جـاف قـذر قديم.. رحت أتسلق الجدران وأتعلق في الهواء بأشـكال غريبة عجيبة، تارة أفرج أطرافي جانبًا كسهم منطلق في الفضـاء، وأخـرى أنقلـب متعلقـًا ورأسـي الـى الأسـفل، أشعر بعدها بالدم يمشي داخل أوردتـي وأسـمع صـوت احتكاكه بين ثنايا عروق جسمي.

مرت علي الليالي والأيام في هذه الزنزانـة الضـيقة وأنا وحيد لا أرى فيها إلا وجه سجاني النذل.

ذات يـوم وقـف تحـت بـابي صرصـار كبيـر اجتذبتـه رائحة زنزانتي العفنة يحاول الدخول اليهـا.. ففرحـت بـه فرحـًا عظيمـًا وأنـا أرى شـاربيه يجسـان المكـان

ويتحسسانه، وكأنني ألتقي صديق قديم لم أره منذ سنوات طويلة، حبست أنفاسي والتزمت السكون كي لا يسمعني أو يشعر بي فيولي هارباً، تمنيت في نفسي وأنا أراقبه أن يكمل تقدمه نحوي.

شعرت باللحظات تمضي بطيئة.. وبعد أن أيقنت من مقدرتي على الإمساك به.. أسرعت ألقي عليه يدي وأضع بالأخرى منديلي في طريق عودته. كانت هذه أول مرة أمسك فيها مثل هذه الحشرة المقرفة، فلم يكن من قبل نصيبها مني إلا أسفل نعل حذائي.. لكني شعرت اليوم برغبة في الاحتفاظ به ومصاحبته.. بل ومشاركتي وحدتي..

تركته يدب على ملابسي وأطرافي بل وحتى على صفحة وجهي، راقبته طويلا.. كيف يتسلق الجدار.. وكيف يعود.. كيف يتحرك ويجس بشارييه المكان.. أطربني صوت صفيره بعدما كنت أمقته، وبتّ أضعه في جيب سترتي وأغلقه عليه وأتأكد من سلامته قبل نومي كلما شعرت بالنعاس.. وهكذا أمضيت معه فترة لا بأس بها، تبدد فيها بعض سأمي ووحدتي.

ذات يوم، لاحظت نفوره مني وابتعاده عني ورفضه تسلق الجدار كلما حثثته على ذلك.. ومع مرور الوقت راح صفيره يخفت وحركته تقل.. فأدركت قرفه مني ومن المكان ومن كل شيء.. ورغبته في فراقي والتخلص

مني.. وتخيلته يكيل لي أنواع السباب والشتائم وهو يقف أمامي محدقًا مصفّرًا.

أشفقت عليه بعد يأسي من شفاء حالته وقلت فـي نفسي: أسجين يسجن سجين!

أخيرًا قـررت إطـلاق سـراحه.. فأزحـت عـن فتحـة الباب قطعة القماش، ودفعته خارجًا، التقت عينانا عندما وقف متسمرًا متعجبًا لبضع لحظات وهو ينظـر إلـي كمـا لو انه غير مصدّق استرداده حريته، لينطلق بعدها مبتعدًا عن نظري الى الأبد.

البـديـل

ذات يوم من تلك الأيام الطويلـة التـي لا نهايـة لهـا، سمعت وقع أقدام تقترب من زنزانتي، اختلط فيها صوت الحـذاء مـع النعـال والبصـطال.. فـزادت معهـا أصـوات نبضات قلبي خوفـاً ورعبـاً، تـرى مـاذا يخبئـون لـي هـذه المرة؟ ألا تكفي كل هذه المدة وأنا فـي هـذا المكـان؟ ألم يحن وقت الإفراج عني؟ إنهـم واثقـون مـن براءتـي ومتأكدون منها، لكنه الخوف والجبن، فقانونهم يقول:

"من ليس معنا فهو ضدنا". و "المواطن متهم حتـى تثبت براءته".

اختلطت دقات طبول قلبي بصـوت المفـاتيح الثقيلـة وهي تعبث بقفل باب زنزانتي.. ثوان وفتح الباب الصدأ.. فآلم صوت صريره باطن أذني ولـم اسـتطع تمييـز وجـه محدثي وهو يأمرني بالوقوف..

حاولـت النهـوض مسـتنداً الـى الجـدار.. فخـانتني قدمي ولم استطع الاستناد عليها.. لكن ذلك الفظ اللئيم لم يمهلنـي، وشـعرت بعنقـي كمعصـم طفـل بـين يديـه الغليظتـين تسـحبني بقسـوة وتقـذفني خارجـاً، تفاديـت براحة يدي شدة ارتطامي بجدار الممر قـدر اسـتطاعتي، وأسرعت أحاول النهوض بكل قوتي قبـل أن ينتهـي مـن غلق الباب ويلتف نحوي.. فلم استطع، فساقي تؤلمني..

زحفت أمامه على يدي وركبتي، مظهراً صـدق نيتـي في تنفيذ أوامره، لكن ذلك لم يشفع لـي، وهـزّ المكـان صوت زئيره ونهيقه..

عليك بالسيّر يا أبن الـ.. هل تعتقد إني سأحملك؟

شعرت في تلك اللحظة أنني كبعير عقرت ساقيه بأسفل فخذيه.

تحركت لأعيد الكرّة وأحاول السير.. علّه يرأف بحالي، لكنه عاجلني بلطمة على عنقي حركت الدماء في أرجاء جسدي وأسقطتني ثانية.

في النهاية.. أوصلني على هذه الحالة الى غايته، بين متدحرج ومتسلق وزاحف.. مشيت على يدي وركبتي.. زحفت على بطني وصدري.. وأحياناً على ظهري، كنت أحاول النهوض والسير وتنفيذ ما يأمر به، لكنه لم يكن ينقطع عن ضربي ولطمي ودفعي.

أخيراً وقف أمام زنزانة علا بابها التراب والصدأ، بينما ما زلت أنا جاثياً بين قدميه وتحتها. تعذر عليه فتح الباب وكأنها لم تفتح منذ تركيبها، لكنها في النهاية أصدرت صوتاً عظيماً صمَّ أذني وهو يحاول سحبها. فخاطبني بقوله:

هذا هو مكانك الجديد.. يا ابن الـ..

تحركت بسرعة لأدخل المكان على عجل قدر استطاعتي وبكل ما بقي لي من قوة لأتفادى خاتمة معاملتي، ومع ذلك.. لم أنجو. فلقد عاجلني مودعاً برفسة قوية في مؤخرتي.

وسمعت صوت الباب يغلق خلفي.

لم يمنعني الظلام من تفحص المكان والبحث في زواياه وأرجائه، كان خالياً تماما إلا من كومة لحم في زاوية بعيدة، بدت وكأنها لرجل تكوّر ككومة ملابس

قديمة قذرة..

لم يكلف نفسه عناء رفع رأسه والنظر ناحيتي لرؤية القادم الجديد..

فأدركت سوء حالته من كثرة بقع الدماء والقاذورات حوله.

زحفت نحوه أحاول معرفة رأسه من قدمه، كان ملفوفًا على بعضه كدودة قزٍّ تقوقعت داخل شرنقتها. أرعبني منظر تخثر الدماء على وجهه وأنحاء جسده. ورغم قذارة ملابسي.. إلا أن رائحته أزكمت أنفي.

كانت ملابسه ممزقة، وقدماه عاريتان حتى أسفل ركبتيه، وآثار الجراح تغطي يداه وكاحليه. أمسكت به أحاول مده على ظهره وأبحث عن شيء أوقف به نزيف دمائه، فلم أجد سوى ملابسي التي لم تكفِ لامتصاص ما سال منه.. شككت بحياة الرجل، فقرّبت رأسي الى صدره أطمئن على نبضه، فوجدته ضعيفًا يوشك على التوقف.

عانيت كثيرًا في إطعامه وسقايته ما يدفع لنا من خلال فتحة باب الزنزانة الضيقة من حساء رديء صبَّ في وعاء معدني قذر قديم. مضت عدة أيام حتى استطاع فتح عينيه. استبشرت بتحسن حالته وحمدت الله وشكرته لأني وجدت بعد طول تلك الشهور من سأكلمه وأسمعه ويسمعني ويكون سلوتي في وحدتي.

ذات صباح.. سمعت همهمة خفيفة تطرق بخفة باب أذني، التفت اليه.. فوجدت صاحبي وقد جلس واسند ظهره الى الجدار، فغمرتني فرحة لم أشعر بها من قبل،

أسـرعت أضـمه وأقبّلـه مهنئـاً علـى سـلامته بـين دعـاء ودموع..

فهمس الرجل بضعف شديد.. انك تؤلمني يا أخي..

استعاد يوسف.. بمرور الأيـام قدرتـه علـى الكـلام، فتبادلنا الحديث تلو الحديث والقصـة تلـو القصـة، وأخبـار الأصدقاء والرفاق، ومن نعرفهم من المعتقلـين، وقـص أحدنا على الآخر سبب اعتقاله، فزاد مـن قـوة صـداقتنا.. تشابه أفكارنا وتطابقها.

ذات يوم.. قلت له ممازحـاً وأنـا أرى ابتسـامته لأول مرة:

هل تعلم قبح شكل أسنانك وبعثرتها؟

فضـحك عاليـاً قبـل أن يجيبنـي: وهـل نظـرت الـى وجهك؟ فأنت لست أفضل مني حالاً.

رفعـت يـدي أتلمـس أطـراف أسـناني وأتحسـس حوافهـا، فأدركـت أن هـؤلاء الجبنـاء قـد كسـروا العديـد منها.. وهنا علا صوت ضحكته ثانيـة وهـو يراقبنـي، فلـم يكـن أمـامي إلا مشـاركته الضـحك.. لكـن ضـحكنا عـاد لينقلب إلى بكاء وليقبل أحدنا صاحبه.

اعتدنا محاولة نسيان ما نحن فيه مـن كـرب وبـلاء، وتجنبنا بكل الوسائل مناقشة حالتنا وأحوالنا، ليقيننا بعدم جدوى ذلك، فالخوض في هذه الأمور لا يزيـدنا إلا آلامـاً فوق آلام. كنّا نعرف نهايتنا جيداً، فلقد سبقنا اليها العديـد من الأصـدقاء والرفـاق وتـأرجحوا علـى أعـواد مشـانق الطغاة. لذلك كنا نبحـث عـن أي نـادرة لطيفـة أو طرفـة خفيفة تضحكنا وتغير واقعنا وتنقلنا الـى عـالم آخـر. كنّـا

نضحك ونضحك ولا نبالي بتحديق الحراس وتهديدهم ووعيدهم وسبابهم لنا، فلقد أصبح تعذيبهم غير مجدي معنا، وأمسينا لا نخافهم، ففي النهاية هو الموت، وما هم إلا أدوات تنفيذية لعقول شيطانية.

لم أضحك في حياتي ما ضحكته في هذه الزنزانة الظلماء، والحقيقة اني وجدت سعادة كبرى في ذلك، فلقد كنّا نخلق الطرفة ونوجد النكتة من أي شيء، من الأحلام.. ومن زنزانتنا.. من الحرس وهيئاتهم وأشكالهم وملابسهم وطرق كلامهم وغبائهم وسوء تصرفهم.. من قذارة المكان وحيرتنا في طريقة تنظيفه.. ملابسنا وما آلت اليه أشكالنا.. جروحنا وما ينزف ويتقرح ويندمل منها.. مستقبلنا.. عوائلنا.. ما قرأناه من قصص وما سمعناه من حكايات.. لم نترك شيء الا وألّفنا حوله النوادر والطرف.

ومع الوقت، تحسنت صحتنا، وأدركنا ان الضحك والفرح والسرور هو خير دواء لأرواحنا ونفوسنا، وانها أفضل وسيلة لقضاء تلك الليالي والأيام التي لا تنتهي.

حدث ذات مرة عندما دخل الحرس زنزانتنا ونادوا باسمي، لم يستطيعوا التمييز بيني وبين صاحبي. فلقد أدى تقارب حجمينا وتأثير مدة الحبس فينا وخفّة أوزاننا وكثافة لحانا وشاربينا وتغطيتهما لمعظم وجهينا وبعثرة شعور رأسينا وتقطع ملابسنا وقذارتها وما علاها من أوساخ ودماء الى جانب رائحتها العفنة، اضافة الى تعوّدنا ارتداء ملابس بعضنا، كل ذلك زاد من تشابه شكلينا.

تقدمت لأذهب معهم الى حفلة تعذيب جديدة.. وعندما أعادوني كنت غائبا عن الوعي، لا أفيق إلا عندما ترتطم قدمي بما يصادفها من أجسام صلبة.

وعندما تركوني لأسقط بين يدي صاحبي، شعرت وكأني وصلت شاطئ برّ الأمان، فعدت لأفقد وعيي وأسافر في غيبوبتي.

استمرت فترة التحقيق والتعذيب الثانية مدة من الزمن، يأخذون يوسف ليعودوا به محمولاً ويطلبوني ليرجعوني مسحولاً.

ذات يوم.. وبينما كان التحقيق ما يزال قائماً على قدم وساق، مرض صاحبي مرضاً شديداً وأصابته حمّى عالية، فاحترت في أمره وكيفية تطبيبه، خاصة وآخر "رحلة تعذيبية" كانت من نصيبه.

وعندما فتحوا الباب في صباح اليوم التالي ونادوا عليه، أدركت من حالته السيئة ان نهايته ستكون في هذه الرحلة لا محالة، لذلك نهضت من فوري ألبي النداء بدلاً عنه، مستغلاً شدة تشابه أشكالنا وخوفي عليه ورحمتي به، ساعدني في ذلك رحيل مجموعة الجلاوزة القدماء من السجن وحلول مجموعة جديدة بدلاً منهم لم يسعفها الوقت بعد للتعرف على وجوه السجناء جيداً.

انتبه رفيقي لما نويت عليه وتحرك يريد توضيح الأمر وتلبية النداء، فما كان مني إلا أن لكزته بخفة، أدرك منها غرضي.. فلاذ بالسكوت.

ذهبت معهم.. وعندما أعادوني مثقلاً بجراحي وآلامي، لم استطع كبح جماح روح الدعابة والنكتة التي

حلّت عليّ، وشرعت رغم سوء حالتي في إطلاق النكات والنـوادر عـن كيفيـة معـاملتهم لـي واشـتباههم فـي شخصيتي واعتقـادهم بـأنني هـو، ودخلنـا فـي موضـوع فكاهي جديد لم يخطر لنا علـى بـال، غيـر مبـالين بمـن حولنا ولا بتهديداتهم، متيقنين من حتمية موتنا فـي نهايـة الأمر.

كانت تلك بداية اكتشافنا لتبـادل الأدوار. لـذلك رحنـا نكررها كلمـا شـاهد أحـدنا ضـعف حالـة صـاحبه وعـدم قدرة على تحمل مزيداً من العذاب.

الى أن جاء ذلـك اليـوم الـذي نـودي فيـه اسـمي.. نزيه.. تقدم.. وخلال لحظات، لم أنتبه إلا وصاحبي ينهض ملبيًا النداء بدلاً مني ويتجه نحو الباب، فاسـتلمه السـجّان على الفور واختفى به وتركني في ظلمة زنزانتي.

مـرّ الوقـت وتـأخر صـاحبي فـي عودتـه.. انتظرتـه وقلقـت عليـه، إذ لـم نتعـوّد مثـل هـذا الغيـاب الطويـل.. ورحت أتساءل: ترى ماذا فعلوا به؟ أين أخـذوه؟ ولمـاذا تأخر؟ أنهم يعتقدونه أنا! ترى هـل عرفـوا حقيقتـه؟ لـن أسامح نفسي ان حدث له مكروه. ومما زاد فـي قلقـي عدم وجـود مـن أسـأله عنـه، فـالجميع يكنـون لنـا أشـد العداء.

ومضت الأيام دون خبـر، وبـدأت أنـدم لذهابـه بـدلاً عني.

عندما فتحت باب حجرتـي بعـد عـدة أيـام، توقعـت دخول صاحبي، لكن الحارس نادى بدلاً عن ذلك، وقـال: يوسف.. تقدم.. فتقدمت وأنـا أكمـل تمثيـل دور صـاحبي

حتى لا ينكشف أمرنا، ورافقته الى حيث المكـان اللعـين، ونلت ما نلت مما تكرَّم به علـيّ جـلاد مجـرم مـن ضـرب وإهانة.

بعد ان انتهى من أداء واجبه على أكمل وجه، نادى على الحرس يأمرهم بإعادتي.

كنت ساعتها ممدداً على الأرض أتلوى ألماً.

رفعني أحدهم واضـعاً يـده اليمنـى حـول خصـري وأمسك بيسراه يسراي ليسـحبها أمـام صـدره مـن خلـف رقبته. ورغم سوء حالي، بقيت صورة يوسف عالقة فـي ذهني يقتلني جهلي بمصيره.

سمعت مرافقي اللئيم، وأنا بين الـوعي واللاوعـي، وهو يقول: لماذا لا تتكلمون؟ كل هـذا العـذاب ولا أحـد منكم ينطق بكلمـة!! يـا لرؤوسـكم الصـلبة التـي لا ينفـع معها سوى التكسير والتهشيم.. لقـد مـات صـاحبك تحـت أقدام الضابط ولم يفتح فمه بكلمة واحدة.. و..

لم أعد أسمع شيء، ولم اسـتطع الكـلام، فالـدماء كانت تملأ فمي، ومع اني حاولت الصراخ، الا أنني لم أقو على النطق. وأدركت ان يوسـف أُعْـدِمَ بـدلاً عنـي.. لقـد اعتقدوه أنا. فمحا هذا الخبر كل آلامي ولـم أعـد أشـعر بها.

إذا.. لقـد مـات صـاحبي ورفيـق زنزانتـي وشـريك عذابي؟! لقد ذهب وبقيـت أعـاني مـن تأنيـب ضـميري.. لماذا تركته يذهب بدلا مني؟ يـا ليتنـي ذهبـت بدلـه آخـر مرة..

أما الآن.. فما عليّ إلا الاستمرار بتمثيل دوره وإزالة

شخصية نزيه من الوجود ونسيانها الـى الأبـد، فـلا فائـدة من البـوح بالحقيقـة بعـد الآن، وإن فعلـت فسـألحق بـه على الفور. فلأصبر وأرى ما سيحل بي، ولابد من الفرج.. فأما اللحاق به أو الحرية.

لقـد مـات صـديقي يوسـف شـريك الليـالي والأيـام المظلمة، قتل المسكين وهو يحاول التخفيف عني، تـرى هل أدرك ما وقع فيه من مأزق قبل موته وبقي صامتاً لا يقول الحقيقة؟!

أم لم ينتبه.. وأدركته المنيّة قبل ان يفتح فمه؟!

ولــدي!!

عدت الى البيت وأنا فـي حالـة شـديدة مـن التعـب والإرهاق. لقد كان يوم عمل طويل، استنفد مني التعـب كل قواي.

وكالعـادة اسـتقبلني أولادي بصـراخهم وصـخبهم، فحاولت الابتعاد عنهم، ولم أقو حتى على تهدئتهم.

بـادلتني أمهـم التحيـة والسـؤال عـن يـومي وعـن رغبتي بشيء من الطعام. فأظهرت لهـا حـاجتي للراحـة والنوم فقط.

قالـت: سـنخرج اذن، لنتركـك تأخـذ راحتـك وتنـام بهدوء. هنالك بعض الطعام داخل الثلاجـة.. ان احتجـت اليه.

دقائق وعمّ البيت هدوء وسـكون، ومنعنـي التعـب من الذهاب الى سريري، فتوسـدت الارض، ورحـت فـي سبات عميق..

لم أدرّ كم من الوقت مضى.. عندما أيقظني صـوت طرق شديد على البـاب اهتـزت لـه أركـان البيـت، وكـأن الطارق يريد تحطيمه.

رغم تكـرار محـاولتي للإسـراع بـالنهوض، الا أننـي فشلت. فصداع رأسي وثقل جسدي والتصـاقه بـالأرض، حالا دون ذلك، وأصابني ذعر شـديد مـن نوعيـة الطـرق وسـببه. فصـرخت - رغـم ألـم رأسـي - أنـادي بـالكف والتوقـف. لـم تكـن المسـافة بينـي وبـين البـاب سـوى خطوات، لكنها كانت رحلة شاقة بالنسبة لي. أمـا غضـبي وفورة دمي وحقدي تجاه من كان خلف الباب، فلا حدود

لها.

فتحت الباب، فوجدت رجلاً ذا هيئة بسيطة، كأنه حارس بناية أو ما شابه. وقبل أن أسأله عن حاجته، صرخ في وجهي: أسرع.. سيارة صدمت ولدك ونقلوه الى المستشفى.

أزال وقع كلمات الرجل كل غضبي وتعبي، فلملمت نفسي بسرعة، وخرجت مهرولاً نحو المستشفى، بعد أن انتعلت أقرب شيء الى قدمي.

وخلال الطريق.. كنت أسمع لهاث الرجل خلفي وهمهمته وترديده كلمات التهدئة والتفاؤل.

لاحت بوابة المستشفى أمامي، فأسرعت نحو قسم الطوارئ أسأل أول ممرضة صادفتها عن ولدي المصاب بحادث سيارة. فتغيّر لونها وامتقع وهي تخبرني بتحويله الى قسم آخر. لم أعلم لماذا ضاق قلبي وانقبض صدري. فحاولت إبعاد مساوئ الأفكار عني بترديد اسم الله الستّار كرّات ومرّات. لكنني شعرت بثقل قدمي وأنا سحبها وكأنها كيس رمل ثقيل.

تبلور كياني وهيكلي كقذيفة مدفع صوب ذلك الباب الأبيض الموصد أمامي، فولدي يرقد خلفه. ترى ماذا حدث له؟ هل إصابته خفيفة؟ أم حدث له مكروه؟ ثم.. أين والدته وإخوانه؟ لماذا لا أراهم؟

دلفت القسم وكررت للموجودين نفس السؤال. فأجابت إحداهن: مهلاً اجلس واسترح هنا، سأنادي لك الطبيب المختص، وسارعت بالخروج لتغيب عن نظري ثم لتعود بصحبة طبيب ارتسمت على وجهه علامات

الحزن والأسى.

تقدم الطبيب مني، وألقى التحية بصوت متحشرج، ثم قال: لا أدري ماذا أقول لك، وكيف أبدأ، لكن.. عليك بالصبر والرضا بقضاء الله وقدره.. فلأكثر من ساعة ونحن نحاول المستحيل معه، لكننا مع شديد الأسف، لم نستطع إنقاذه.. البقية في حياتك..

لم يكن هذا الطبيب يتكلم، بل كان يطلق من فوهة رشاش فمه رصاص الموت في أذني. أحسست بحرارة في رأسي، وشرراً يتطاير من جوانب عيني. فضاقت الأرض بي، وفاض وجودي، وتقلص جسدي، ولم يتسع صدري لحزني وكربتي، وامتدت يدي لقميصي تحاول تمزيقه. فأسرع الحاضرون ليمسكوا بي، ولم أشعر بوخزة الإبرة التي خففت من حالتي ومنحتني بعض الاسترخاء.

جلست على الأرض ومددت ساقاي وأسندت ظهري الى جدار الغرفة، كامرأة عجوز ثكلت لتوّها.

قلت: أريد رؤيته.. أريد رؤية ولدي.

فتبادل الحاضرون النظرات كأنهم لا يستحسنون طلبي. لكن الطبيب، قطع حالة التردد بعلامة الموافقة تحت وطأة إصراري وصراخي. فامتدت الأيدي لتساعدني على النهوض والمسير.

كنت، كمن يتوجه الى عمود مشنقته - وتمنيت ذلك بالفعل على رؤية فلذة كبدي قتيلاً مسحوقًا مهشماً - لكن رغبتي بإلقاء نظرة أخيرة عليه، كانت تعتمل في صدري بشكل لا يقاوم.

تقدم موكبنا ببطئ، يخـيّم عليـه الصـمت والسـكون والحزن العميق، فلم يكن بين الحضـور مـن يرغـب فـي الوصـول الـى السـرير قبـل غيـره. ولاح لـي عنـد نهايـة القاعــة، ســريراً يتوســطه جســد طفــل صــغير، غطــي بشرشف أبيض اللون، ما زالت آثار الـدماء الطريـة تلـوث بعضاً منه.

عنـدما حاذينـا ذلـك الجسـد الضـئيل واقتربنـا منـه، سألني الطبيب ان كان باسـتطاعتي تحمـل رؤيـة وجهـه، فأومأت برأسي موافقاً والدموع تحجب ناظري.

مدّ الطبيب يده نحو الغطاء، وأمسك بطرفه..

وبهدوء راح يزيحه..

حدقت في وجهه..

وصرخت بأعلى صوتي.. انه ليس ولدي..!!

نصـف الهـدف

لا زالـت تخـتلط فـي هـواء مخبـأي، ذرات تـراب الحجـارة التـي نثرتهـا رصاصـة ذلـك القنّـاص المتخفـي القابع أمـامي خلـف تلـك البنايـة البعيـدة، ولا زال صـدى أزيزها يملأ أذني. كاد يصيبني لولا حذري منه، انه قنـاص لا يقل مهارة عني. فكم حاولت إصابته والنيل منـه، لكنـه لم يكن يترك لي فرصة لتحقيـق غرضـي، ولـولا حـذري منه وحصانة موقعي، لزرع منذ أولـى محاولاتـه رصاصـة في جمجمتي.

لم يستعص عليّ مـن قبـل هـدفًا مثلـه. فمنـذ تلـك الأعصار التي كنت وأخي نـذهب الـى الغابـات المحيطـة بمدينتنا لتعلّم إطـلاق النـار بصـحبة والـدي، وأنـا قنـاص ماهر. ولا زلت أذكـر جيـدًا، كيـف كانـت الأهـداف تصـغر أمامنا وتبتعد وتتحرك بالتدريج كلما زادت مهارتنا، بعد أن كانت قريبة وكبيرة في بداية تعلمنا.

كم تسابقت وأخي في محاولاتنا لإصـابة الأهـداف. وكم علت قهقهـات والـدي وارتفـع صـدى ضـحكاته فـي أرجاء الغابة فرحًا عنـدما كنّـا نصـيب أهـدافنا. لقـد بـذل الكثير في سبيل تعليمنا الرماية والتهديف، وكثيرًا مـا كـرر قسمه بأن يجعلنا نبزّ جميع الرجال في هذا المجال.

ذات يوم، وبعـد مضـيّ فتـرة طويلـة علـى تـدريبنا، جلـس والـدي يفتـل شـاربيه فخـرًا، وهـو يقـول: الآن.. أستطيع الجزم أنه لا يوجد من يجاريكم في دقة الرماية، ولا حتى أفضل رعاة البقر في أمريكا. لقد انتهت مهمتي، ووفيت بقسمي، واطمأنيت على رعايتكما لأسمي وبيتي.

مرّت السنين والأيام، وبلغت وأخي مصـاف الرجـال

وتطورت الحياة وتعقدت وتراكمت الأحداث، وطلّت الفتنة الـدهماء برأسـها المخيـف فـي آفـاق وطننـا الغـالي، وانزلقت أقدامنا فيهـا مثـل غيرنـا مـن الشـباب والرجـال، وافترق كل واحد الى جهة وفريق يحمل فكرًا خاص بـه يقاتل من أجله. فتقاتلنا في معـارك ضـارية لا رحمـة ولا شفقة فيها.

كم صـديق سـقط، وكـم قريـب غـرب، وكـم عائلـة شردت، وكم شرف هدر.. كم من عهود نكثت، وكـم مـن وعـود نقضـت.. أصـبح سـواد ملابـس الثكـالى والأرامـل وحزن وبكاء اليتامى لا يثير فينـا إلا المزيـد مـن الإصـرار في رغبة الانتقام. وألف الجميع أخبار الكـوارث وحـوادث القتل ورؤية الدماء، وتناقلها الصغار قبل الكبـار، وقسـت صـخور القلـوب وتصـلبت الأيـادي واخشوشـنت راحاتهـا وانقعرت جحـور العيـون، وابيضـت الشـعور وتسـاقطت، وقلّـت الأفــراح وزادت الأتــراح، واختفــت الموســيقى وأصوات الغناء، وارتفع بدلها أنين النواح وأصوات البكـاء في كل مكـان. ولـم تعـد تمـلأ شـوارع مـدينتنا الواسـعة بهجــة ألــوان فســاتين الصــبايا وقــدودهن المتمايلــة وثغـورهن المبتسـمة، ولـم نعـد نسـمع صـخب جلجلـة أصوات لعب الأطفال وضحك أولاد المحلـة، واتشـح كـل شيء بالسواد الحالك المقيت.. لـون الغـمّ والهَـمّ.. لـون الموت.

والآن، وكرجل مسؤول، أشعر أن من أول واجباتي، هو القضاء على هـذا القنـاص القـابع أمـامي. أنـه أحـد دعـائم تجـار الحـروب، أولئـك المسـاهمين فـي توزيـع

المآسي والآلام على أبناء بلدي، لن أدعه يكمل مشواره بمزيد من الضحايا، ولن أترك له فرصة تقوية حزبه بقتل قناص جيّد مثلي، فأنا أدافع عن العدل وأناصر الحرية.. ولابد من طريقة أخدعه بها وأنال منه.

لقد فهم أحدنا الآخر الآن، بعد محاولاتنا العديدة للنيل من بعضنا. وفهمت أنه يسخر مني كلما أخطأته، كما أفعل أنا معه عندما يخطئني. كم تبادلنا طلقات تحيات الصباح ورصاص السخرية والتهديد. انه مبارز يقض وذكي، استطاع مجاراتي وفهم حوار طلقاتي بسرعة، لقد تزاملنا في العداء والكراهية، وأوثق إبليس عرى العداء بيننا بقوة لا يفض عقدتها الا فناء أحدنا.

يجب وقف هذه الحالة، فان لم يستطع هو حسم المبارزة، فأنا الذي سيحسمها. لقد أصاب وقتل العديد من رفاقي. صحيح أنني فعلت برفاقه نفس الشيء، لكنني أقف في صف الحق وصواب الرأي.. وأنا هدّاف ممتاز لا يجاريني أحد.. إلا هذا الملعون، لن أدعه يبعثر بعد الآن مزيداً من رصاصه الرخيص في جماجم وصدور زملائي الأعزّاء.

قررت خداعه..

غالبًا ما راودتني فكرة جنونية شيطانية خطرة لا تحتمل الخطأ، وهذا هو سبب تأجيل تنفيذها، فنهايتها لا تخرج عن نتيجتين، إما قاتل أو مقتول.

كانت هناك بناية تقع على مقربة من موقعي، لها إطلالة جيدة على مخبأه، وكثيراً ما فكرت بتسلقها واصطياده من فوقها. لكن مكشوفيتها كانت تدفعني

دائمـاً للتـردد عـن التنفيـذ. أمـا الآن، فلقـد حـان وقـت الحسـم، ولـن أحتـاج الا لفرصـة واحـدة، سـتكون كافيـة لقناص ماهر مثلي بعد أن عقدت العزم على إنهـاء هـذا الجدل الناري بيننا.

ذات ليلة.. تسللت بخفة فهد صـحراوي نحـو مخبـأي الجديد تحت جنح الظلام وقبل انتشار خيوط أنوار الفجر، ولم أصدر أي صوت رغم صعوبة المسير وتعثر أقـدامي، وتنقلت بهدوء بين أنقاض البناية وحطامها. فكل ما أريده هو فرصة واحدة، ولابد أني ناظره مـن مـوقعي الجديـد عند بزوغ الفجـر وهـو فـي مخبـأه، وسـألقي عليـه مـن هناك تحية الصباح برصاصتي الأخيرة.

جلست بين ركام الحديد وأكوام الإسـمنت وأنقـاض الحجارة أنتظر فرصتي الذهبية. ومـرت الـدقائق تسـحب معها ظلام الليل ببطئ شديد، وبدأ الفجـر يعلـن قدومـه. فأخذت مكاني وجهزت وضعي المناسب وصـوبت فوهـة الموت نحو جهة خصمي العنيـد ووضـعت إصـبعي علـى زناد الحسم وحملقت عيني خلف فوهة النـار. لـم أشـعر بملل أو كلل، ولم ترتخ عضلات يدي لحظـة واحـدة. لقـد عزمت على إزالة هذا المنافس الشجاع الى الأبد.

في لحظة معينة، أدركت حركة داخل موقعه.

إذن، لقد فاق من نومه أخيـراً، سـأعيده بعـد قليـل الى سبات لا فواق منه.

ان اللحظة المنتظرة قادمة، سأطلق عليـه رصاصـة يتيمة لا أخت لهـا، فهـو لـن يـدعني أكررهـا ان أخطأتـه، وسيثقب جمجمتي بعدها على الفور.

إنها محاولة قاتل أو مقتول.

لا أدري ما ألمَّ بـي لحظتهـا. أحسسـت بشـيء فـي صدري لم أستطع فهم كنهه ولم أعرف ماهيته، لم يكـن من الخوف بشيء، ولا من التـردد، بـل كـان مزيجـاً مـن الرحمة والشفقة.

انتبهـت لنفسـي علـى الفـور وزجرتهـا، فـلا وقـت للتراجـع الآن، لقـد فـات أوان التأمـل والتفكيـر. شـددت عضلات ساعدي وجلست أقيس الحياة بأجزاء الثانية من حولي، إنها لحظات الحسم، وسأنهي جدلنا الطويل.

وفور إطلالة صاحبي بنصف رأسه، ضـغطت سـبابة القتل على زناد الموت ولم أنتظر نصفه الآخر، إذ لم أكن بحاجة لأكثر من نصف الهدف، وسمعت من بعيد صـرخة لا تتكرر.. لقد أصبته..

انتظرت قليلا لأتأكـد مـن النتيجـة، فلـم أرَّ أي حركـة ولم أسمع أي صوت. فنهضت وسلاحي فـي يـدي أسـرع الخطى فرحًا، أتعثر بأكوام الأنقـاض عائـدًا الـى رفـاقي الذين استقبلوني بالترحيب والعناق والتهنئة لهـذا الإنجـاز العظيم.

مـرت سـاعات النهـار وأنـا أتجـرع كـؤوس نشـوة الانتصار وأتبادلها مع رفاق السلاح، وأكرر لهم قصة ذلـك المبارز الشجاع وكيف خدعته وانتصرت عليه في النهاية.

في المساء.. عدت الى بيتـي، فشـدّ انتبـاهي كثـرة المتجمهرين حول بيتنا، كان منظرهم وصـمتهم يـنم عـن حدوث أمر مكـروه. أسـرعت الخطـى لألـج صـحن الـدار واستطلع الخبر، فرأيت جثة هامدة مسجّاة علـى الأرض

لوثت الدماء أغطيتها، بينما التفّت أخواتي ووالدتي يبكين ويولولن حولها، وقد مزّقن ملابسهن وحسرن رؤوسهن.

فقدت الاحساس والتفكير، وتسمّرت نظراتي نحو الجسد المسجّى، أحاول التكهن بهويته، ترى من يكون؟

مددت يدي بتردد نحو الغطاء أزيحه.. فشاهدت ثقب رصاصتي في جبهة أخي..

أرمل لنصف يوم !

منذ أول درس ألقيته على زوجتي لتعليمها قيادة السيارة، حذّرتها من السرعة وأخطارها، وقلت لها أن السائق المسرع يعلن للجميع عن حداثة عهده وجهله بالقيادة، وكثيراً ما كررت عليها ان السرعة غير مرغوبة ولا محببة وتقلل من السيطرة على المركبة، ويعاقب عليها القانون، ولا تليق بالأشخاص العقلاء المحترمون، وهي أقصر الطرق الى المشاكل وخراب البيوت، انها طريق الهلاك والسجون.

كنت أخاف عليها من حادث لا تحمد عقباه، وتطير صوابي وترعبني فكرة وقوع حادث خطير لها قد يؤدي بحياتها أو يقعدها أو يؤذي واحداً من أولادي، أو احتمال صدم انسان بعثه قدره الأسود للوقوف في سبيلها، فلم تمهله زوجتي العزيزة في الوصول الى غايته، وأسرعت بتسليمه الى يد المنون وعجّلت من موعد قدره المحتوم.

كم رجوتها وحذرتها وهددتها، وكم سمعت منها تعهدات الكف عن السرعة. لم أترك فرصة الا ونبهتها لأخطار المرور، ولم أدع مناسبة الا وذكرت لها حوادث الغير ومصائبهم وبلاياهم، وكنت أسارع لدعوتها لرؤية الحوادث على شاشة التلفاز ونتائجها المهلكة.

ومع ذلك.. لم تنقطع عن دخول المنزل وهي تحمل بيدها إيصال دفع غرامة ضبط جهاز الرادار لسرعة سيارتها، ولم تكف عن طلب مساعدتي لتسوية مشاكل حوادث تصادمها.. فمن لها غيري؟

خرجنا معاً ذات يوم لأداء مهمة مستعجلة وأنا

أجلس بجانبها. كان زحام السيارات شديداً وصفوفها على امتداد البصر، ولمّا لم نجد مكاناً خالياً لإيقاف سيارتنا، اقترحت عليها الترجل والذهاب قبلها للمكان المقصود، وتركها تتدبر أمر إيقاف سيارتها واللحاق بي.

بعد مرور نصف ساعة على تأخرها، ظننت أنها لم تستطع الحصول على موقف لسيارتها. فشعرت بما تعانيه من ضيق وضجر، وقلت في نفسي، لعلها اعتمدت على سرعة عودتي لمعالجة الموقف وتخليصها من مأزقها. فأنهيت مهمتي على عجل، ونزلت الى الشارع أنظر هنا وهناك أحاول العثور عليها أو على سيارتها.

انتبهت لمجموعة من المتجمهرين عند شاطئ البحر وهم ينظرون الى أعماق الماء وكأن شيء قد سقط هناك، ولعدم اهتمامي بالموضوع وانشغالي بما أنا فيه، لم يدفعني فضولي لاستفسر عن الحدث. ولكن، بعد ان طال انتظاري، ولا أثر لسيارتنا ولزوجتي، سألت أحد العائدين من ساحل البحر عن سبب الزحام هناك، فأخبرني بسقوط سيارة مع سائقتها في الماء. ومرة ثانية.. لم أهتم للموضوع، فهذا خبر عادي غالبا ما نسمع بمثله.

عدت أجول ببصري هنا وهناك والدقائق تمضي وتمضي، ولا أحد.. كنت أحاول جاهداً طوال فترة انتظاري وبإصرار، طرد هاجس خفي وشعور غريب سيطر على عقلي وذهني للذهاب الى مكان الحادث والتأكد من هوية السائق والسيارة. وكلما تضخمت الفكرة في رأسي، كنت أحاول تشتيتها بين السيارات

وسـائقيها مـن حـولي، لكنـي لـم أفلـح. ومما زاد فـي وطأتها، طول فترة انتظـاري واختفـاء زوجتـي وسـيارتنا. فتوجهت الى هاتف عمومي للاتصال بأولادي للاطمئنـان عليها، فلعلها سبقتني الى هناك. لكـن أولادي أكـدوا لـي عدم عودتها بعد.

وبلا إرادة وجدت نفسي أتقدم لأنضم الى صـفوف المحتشـدين اسـتطلع خبـر الحادثـة.. فوقعـت تعليقـاتهم على أذني وقع السياط..

قال أحدهم: كانت السيارة تطير ولا تسير.

وقال آخر: يبدو أن سائقتها كانت تكبس الوقود بدلا من كابح السرعة.

سألت من حولي عن نوع السيارة ولونها.

فجاءني الجواب، ليزيد شكوكًا فوق شكوكي.

إنها نفس نوع سيارتها ولونها!

يا الهي! هل حدث ما كنت أخشاه؟

هل من تقبع الآن تحت الماء، هي زوجتي؟

هل أمسيت أرملاً، وتيتم أولادي؟

كيف سأتمكن من تربيتهم، ومن سيعتني بهم؟

هل سيأتي يـوم أتـزوج بـامرأة جديـدة تحـل محـل زوجتي؟

كيف ستعامل أولادي؟

شعرت بتغيّر لوني وتصبب عرقـي وضـعف سـاقي وارتجاف أوصالي واسوداد الدنيا بعينـي، ولـم اعـد أع أو أسمع شيئا من حولي، ودخلت في دوّامة لـم أفـق منهـا الا على صوت من يعلن وصول رجال الدفاع المدني.

وقفت بصعوبة وقلق أراقب عملية الإنقاذ وسيرها، وكيف حاول رجال الضفادع لعدة مرات الوصول الى السيارة لانتشالها، لكنهم كانوا يعودون من تحت الماء في كل مرة ليعلنوا فشلهم بسبب عمق المياه وشدة تياره وصعوبة المكان وازدياد الظلام الذي بدأ ينتشر ويعيق مهمتهم.

في النهاية.. قرروا عدم جدوى تكرار المحاولة وتأجيل مهمتهم حتى صباح الغد.

فصرخت من وسطهم بلا شعور: لا.. لا.. أرجوكم أخرجوها، انها زوجتي.. كيف يمكنكم ترك انسان تحت الماء، فلعلها ما زالت على قيد الحياة، كيف يمكنني العودة الى البيت، وماذا سأقول لأولادي؟

كنت أبدو كمجنون بين المتجمهرين، ولم ينفع رجائي ولا توسلي مع المسؤولين في شيء.. بل على العكس، هم الذين حاولوا إقناعي بعدم جدوى المحاولة أثناء الليل وشدة خطورتها على رجالهم. فاصطحبني رجال الشرطة في سيارتهم الى مخفرهم لملأ بعض البيانات، ثم أعادوني الى البيت.

عندما ترجلت من السيارة، رأيت نور شقتنا ينبعث مشعاً من خلف ستائر نوافذها، فقررت عدم إبلاغ أولادي بحقيقة الموضوع وإرسالهم للمبيت عند أحد أقربائهم في تلك الليلة.

دخلت البناية.. وأنا بطيء الحركة.. شارد الفكر.. سارح البال.. مشتت الأفكار.. خائر القوى.. تائه النظرات.. معقود اللسان.. أصفر الوجه، مددت يدي

المرتجفة الى زر المصعد لأكبسه، ثم خرجت منـه ميممـاً وجهـي شـطر بـاب شـقتي، وقفـت أمامهـا متـردداً فـي طرقها، لكنني فعلت ذلك في النهايـة مضـطراً، فسـمعت وقع أقدام أولادي وأصواتهم وهم يتراكضون نحـو البـاب ليفتحوا لي، فزاد ذلك من عذابي ومن صعوبة لقاءهم.
انفتح الباب، فرأيت زوجتي تتوسطهم وتسألني:

أين كنت كل هذا الوقت.. ولماذا تأخرت؟

لم أدرك حاجة البشر والإنسانية الى لغة عالمية واحدة يتفاهمون بها ويتبادلون الآراء والأفكار وتلبية حاجاتهم ومستلزماتهم من خلالها، إلا بعد أن وقع لي ما وقع في تلك الدولة الأجنبية. فكثيراً ما صدمت خلال قضائي وعائلتي إجازتنا الصيفية في الخارج بحاجز اللغة وصعوباتها. كنّا لا نعرف ماذا نطلب من طعام اذا دخلنا مطعماً، ولا طريقة التعامل مع الباعة اذا أردنا شراء حاجة، ولا أين نذهب او نتوجه اذا خرجنا للنزهة. لذلك قررنا في النهاية تقليد الصم والبكم في تخاطبنا مع الناس بدلا من ترديد أبسط مفردات كلمات لغتنا دون ان يفهمها الناس. كان قراراً يبعث على الخجل والاستيحاء. فرغم روعة وفصاحة وسعة لغتنا الجميلة، الا إننا اضطررنا للاستعاضة عنها بالإشارات الصامتة مثل المعاقين وذوي العاهات. ولا أدري لماذا لم تنتبه شعوب العالم ومفكريها وقادتها لحاجتهم الى لغة عالمية واحدة مشتركة تضاف الى جانب لغاتهم القومية لتسهيل التعامل بينهم ولإسراع عجلة الترقي بين الشعوب من خلال تبادل المعلومات والأفكار.

انتبه موظف الفندق لما نحن فيه من حيرة في أمرنا وجهلنا بمعالم المدينة من خلال كثرة جلوسنا المتواصل أمامه في صالة الفندق مع هذه المجموعة من الأطفال، وأدرك من خلال خبرته حاجتنا للمعونة والإرشاد. فتقدم منا لينصحنا بزيارة مكان جميل قريب لا يحتاج الوصول اليه الى كثرة عناء أو مشقة، ومدح هواء

المكان وماءه وأشجاره وخضرته. وتسهيلاً لذهابنًا، أشار علينا بأخذ حافلة عامة لرخص أجرتها ولمرورها بمناطق خلابة الجمال. فما كان مني الا ان أسرعت بتدوين رقم الحافلة ومكان انطلاقها.

خرجت وعائلتي ونحن نمسك بأيدي بعضنا البعض متجهين الى موقف الحافلة. ففرح الأولاد بكبر حجمها وسعتها وراحوا يتراكضون ويتقافزون بين مقاعدها الخالية. وما هي إلا بضع دقائق حتى امتلأت بركاب من جنسيات مختلفة، فناديت على أولادي أجمعهم حولي مخافة فقدان أحدهم. وصدق رجل الفندق، فقد خلبت لبّنا مناظر الطريق الجميلة وملأ صدورنا هواءها العليل.

لم تغفل عيون زوجتي وعيوني عن مراقبة أولادنا داخل الحافلة، خاصة خلال توقفها عند المحطات لالتقاط راكب او إنزال آخر، فقد كنا نخشى تسلل أحدهم الى خارجها ونحن في غفلة عنه، فيقع ما لا يحمد عقباه.

عندما علمت ان المحطة التالية هي غايتنا، خفّ قلقي وهدأت حدة مراقبتي لأولادي، ولم أهتم لما حصل من هرج ومرج بين الركاب ساعة النزول، لأني أعلم ان الحافلة ستخلو من الجميع ولن يتبق فيها أحد.

بعد ترجلنا، وقفت على حافة الطريق بين أفراد أسرتي أعيد تنظيم صفوفهم وحساب عددهم. فاكتشفت فقدان ولدي الكبير! تلفت حولي فلم أجده! اعتقدت انه ما زال داخل الحافلة ولم يترجل بعد، فعدت لأبحث عنه، واذا بالحافلة تغلق بابها وتنطلق!

يا الهي.. أليست هذه هي آخر نقاط سيرها؟!

حدّقت بداخلها، فوجدتها ما زالت تحتفظ ببعض الركاب! فأدركت ان الطريق لم ينته بعد! ترى الى أين ستأخذ ولدي؟ ومتى سينتبه السائق لوجوده؟

حاولت بالصياح تنبيه من يستقلونها.. لكن صوت محركها طغى على صوتي.. ركضت خلفها، فخذلتني صحتي.. تلفّت حولي أبحث عمن يملك سيارة لمساعدتي في اللحاق بها، فوجدت رجلاً محترماً يقف بجوار سيارته، ركضت نحوه أحاول التفاهم معه طالباً مساعدته، إلا أنني فوجئت بحاجز اللغة اللعين يحول بيني وبينه مما زاد في حيرتي وارتباكي. ولأول مرة شاهدت عجز لساني ومنطقي وفصاحتي. حاولت بالإشارة والتلميح شرح بغيتي، فكان رد الرجل أن رفع كتفيه وفرد يديه ومط شفتيه. أدركت ان لا طائل من المحاولة معه، فالوقت من ذهب.

ساعتها.. تمنيت من كل قلبي لو تكلم الناس جميعاً بلغة واحدة، فعندها ستحل كثيراً من مشاكل الناس وأولها مشكلتي.

احترت في بليتي، وما أنا فيه! ماذا أفعل؟ هل أقف في مكاني أنتظر عودة الحافلة من نفس الطريق؟ وماذا لو أنها عادت من طريق آخر؟ ترى هل سينتبه الركاب لوجود ولدي؟ وماذا سيفعل لو علم بموقفه؟ من سيفهم كلامه؟ كيف سيفسر مشكلته؟ من سيهدئ روعه ويخفف عنه رعبه؟ يا لها من مصيبة؟!

التفتُّ الى الوراء، فرأيت زوجتي والدموع تملأ

مقلتيها تحاول بحركات عصبية لملمة بقية أولادها، حاولت تجنب نظراتها، لكنها سارعتني بكلمة مزقت لبّ فؤادي:

أريد ولدي..

أدركت من حزم نبرتها وتجهم وجهها، انها لن توافق على أي عذر ولن تفهم أي تفسير ولن توافق على نقاش هذه المصيبة بأي شكل من الأشكال. انها تريد ولدها، وستحملني كامل المسؤولية باعتباري مدبر الرحلة ومنظمها ومديرها.

عدت أفكر في ضياع ولدي وابتعاد الحافلة. فخطرت لي فكرة أخرى.. ترى، هل ترجَّل منها في غفلة عنّا ونزل قبلنا؟ فان كان كذلك، فأين هو؟

وقفت وكأني أخاف الحركة، لا أعرف ماذا أفعل.

ترى هل فقدت ولدي وبكري في هذا البلد الغريب؟

أين سأبحث عنه؟ ومن سأسأل؟

هنا شعرت بانقلاب هواء المكان وتبدل نسيمه العليل الى سموم تلهب صفحة وجهي، وانقلب جماله ولطف هواءه الى سواد وظلام ورعب مخيف، وأمست روعة القدود وجمال الوجوه أمامي، ملامح مشوشة وأشباح ضبابية. حاولت التحكم بزمام أعصابي وعدم إظهار ما في قلبي من خوف ورعب أمام زوجتي كي لا أزيد سوء حالها. لكنها كانت تكرر بوتيرة مملة ميكانيكية:

أريد ولدي.. أريد ولدي..

كانت جموع مطارق الأفكار السوداء تتسابق

لتطرق سـندان عقلـي وتلفنـي فـي صـخب وضوضـاء لا حدود له، وشعرت بأمواج مياه الحيرة تتقاذفني وتغرقني في بحارها، فأعلو وأهبط فوق سطحها.

وبينما أنا في هذه الحالة، أجمع أخماس وأسـداس ثم أضربها وأقسـمها، اذا بصـوت رقيـق تعـودت سـماعه يأتي من خلف الأشجار على حافة الطريق..

بابا.. بابا.. لماذا تقفون هناك؟

تعالوا.. ان المكان جميل هنا..

رأيته يحمل بعض أواني الماء، فسألته: من أين تجلبون مياه الشرب هذه؟

قال: من عين الماء داخل الغابة أعلى الجبل.

تأسفت للجواب، خاصة وأننا سنعود لديارنا غداً بعد سياحة شهر كامل. لقد كان بإمكاني الحصول على ماء نقي صاف من عين جبلية طبيعية كبقية نزلاء الفندق طوال فترة إقامتي بدلا من شراء ماء القوارير المصفى غالية الثمن.

أخبرت زوجتي عند عودتي الى غرفتي بحكاية الماء ورغبتي في إحضار بعض منه في هذا الوقت. فحملت عدداً من القناني وخرجت متوجها الى تلك العين.

كان الظلام قد بدأ يخيّم على المكان، والشمس مالت الى المغيب خلف قمم الجبال، وبدأت مصابيح القرية تتلألأ في شوارعها وأزقتها، والأنوار تنبعث من بيوت القرية وتشع من نوافذها. لكني حثثت الخطى ماضيا الى الأمام، ولم يثن عزمي لا وعورة الطريق ولا ظلامه.

ابتعدت شيئاً فشيئاً أمشي في تلك الطرقات الغريبة، فلم يسبق لي أن توجهت نحو تلك الناحية من الجبل، وأول ما خطر في ذهني احتمال مهاجمة لص لي بعصا غليظة يسقطها على أم رأسي، لا أدري هل أصحو بعدها أم أفارق. أم أقع داخل حفرة أعود بعدها الى بلدي بساق واحدة.

أبعـدت هـذه الأفكـار عـن رأسـي ومـلأت قلبـي بشجاعة فرسان العهود الغابرة، وقلت في نفسـي: هيّـا يا رجل، مثلك لا يخاف شيئًا، أيـن شـجاعتك التـي تتغنـى بها أمام أولادك وزوجتك؟

سـمعت أصـوات بعـض الحيوانـات تصـدر مـن هنـا وهناك، لكني لم أعرف كنهها أو مصدرها ولم أبـال بهـا، فطالما لم أميز بينها صوت الذئب اللعـين، فـلا ضـرر مـن المضي قدمًا.

كلما ابتعدت عن القرية وتقرّبت باتجاه مكـان عـين المــاء، زاد خــوفي وقلّــت شــجاعتي. كانــت الــدقائق والثواني في ذلك الظلام الدامس تمرُّ بصـعوبة وكأنهـا لا تنتهي، وكم عاتبت نفسي على هذا البخل والتقتيـر الـذي لا موجب له.

عندما سمعت نقيع الضفادع.. أدركـت اقترابـي مـن الهدف. فتوقفت أحاول تفحـص المكـان وتحديـد مكـان العـين. ولمّـا لَـم أرَ شـيئًا، سـمعت هاتفـًا فـي داخلـي ينصحني بالعودة والرجوع، وعـادت فكـرة ظهـور ثعبـان جبلي في وجهـي او حيـوان شـرس جـاء ليشـرب المـاء مثلـي مسـتغلاً ظـلام الليـل. أحسسـت باسـتقامة شـعر رأسي وبقشعريرة جالت مع دمي داخل أجزاء جسـدي، وبدأت أشعر بندم شديد يطرق رأسي.

وحال اقتناعي بعدم إمكانية العثور على عين الماء في هذا الظلام، ولا نجاة لي من وحشة هذا المكـان الا بـالعودة والرجـوع. شـاهدت سـلمًا صـغيرًا علـى حافـة الطريق ينحدر بين الأشجار، فأدركت انه يؤدي الـى عـين

الماء.

اذن لقد وصلت، انها هنا أسفل المنحدر!

عادت تلك الأفكار السوداء تهاجمني مرة أخرى وأنا أهبط أولى درجات السلم. ورغم خفقان قلبي ويبوسة بشرة وجهي وبرودتها، قلت لنفسي بصوت عال مبدداً خوفي: سأجلب الماء حتى ولو كان هناك تنين صيني يحرسها.. لن أعود دون الماء. ورحت أردد كل من أعرفهم وأتذكر أسماءهم من الأولياء والصالحين لتشجيع نفسي.

كنت أتوقع العين كما أراها في أفلام السينما.. حفرة بين الصخور ينضح الماء منها صافياً.. لكني وجدتها كمحطة وقود بترول.. بأنابيب وحنفيّة! استغربت لشكلها المتطور هذا. ومع ذلك لم يلهني او يؤخرني ما رأيته من غرابتها عن الإسراع في ملأ ما معي من قوارير.

وهنا كانت المفاجأة.. لا ماء في حنفيات العين، لقد كانت خالية!

انتابني غضب بركاني وشعرت بضوء نار عيوني ينير المكان.

لا ماء.. هنا.. في عين الماء! ما هذا الحظ النحس؟

انتابني غضب شيطاني، ورحت أرمي وأقذف ما أحمل من قناني في كل ناحية وفي جميع الاتجاهات، وأنا ألعن العين ومن دلّني على مكانها.

تسلقت السلم بسرعة عائداً، يدفعني الخوف من

شدة الظلام. وعندما وقفت على حافة الطريق، رأيت ما كنت أخشاه! كان بانتظاري كلب ضخم أسود اللون بحجم حمار، وقف يحدق بي بعيون جهنمية تقدح شرراً. وفـوراً شـعرت بجفـاف فمـي وتصـلب سـيقاني ونحـن نتبـادل نظرات الاستفسار والتعارف. حاولت التسلل بخفة مبتعداً عنه وأنا أرسم على وجهي ابتسامة جبانة بلهاء. فـاذا بـه يتبعني وصوت وقع أقدامه تعلـو خلفـي كضـربات طبـول الهنود الحمر. مشيت وانا أختلس النظر اليه بهدوء وعيناي ترصد حركاته خشية انقضاضه على ظهري وتمزيقه، فإن فعل، فلا شك انـه سـيقطّعني الـى عـدد لا يحصـى مـن الإرب، سيصعب على أهلي وأصحابي جمعها وتنظيمها.

كنت أعلم ان الركض والهروب سيدفعانه للحاق بي والهجوم عليّ، لذلك فضلت متابعة المشي بهدوء وكـأني من أهل القرية وأحد ساكنيها. أمـا اذا غيّـر رأيـه وأسـرع خطاه.. عندها سيكون لكل حادث حديث.

ان فكرة كون من يتبعني حيواناً، وصـعوبة الـتكهن بمـا يـدور فـي رأسـه، وحتميـة معرفتـه غربتـي وعـدم انتسـابي الـى المكـان، أشـعرتني برعـب خفـف وزن أقدامي وأغراها علـى الجـري والمطاولـة.. لكـن فكـرة إمكانية لحاقه بي والنيل مني عارضتها وبددتها.

لذا قررت اعتباره رفيق طريق يحاول تسـليتي فـي وحدتي، فلم يكن أمامي خيار آخر.

وبينما أنا كذلك تتلاطمني أمواج بحر ظنوني العاتية، اذا بحجـر لعـين دفعـه حظـي المنحـوس يسـتقر تحـت قدمي، وخلال لحظات أفقدني تـوازني وطرحنـي أرضـاً.

ورغم ما أصابني من رضوض وآلام، إلا أنني لم أعرّ ذلك اهتماماً، وبقيت مسلطاً بصري نحو ذلك الضخم خلفي أراقب حركاته وسكناته.

وهنا سمعت منه زمجرة خفيفة بدأت تعلو رويداً رويداً اقشعر لها بدني. حدّقت به من خلال الظلمات وأنا ما أزال ممدداً على الأرض أحاول تقدير الموقف وأتكهن معرفة خطوته التالية، فوجدته مكشراً عن نصال وسهام سوّرت مقدمة رأسه.

إذن إنها اللحظة الفاصلة.. لقد حان وقت العدو والركض وحق زمانه. لن أعط هذا (الكلب ابن الكلب..) فرصة التمثيل بجسدي وتقطيع أوصالي.

وهنا تبدل وضعي في ثواني.. من طريح أرض يتلوى ألماً الى عدّاء يسابق الريح. كان يعدو خلفي ويطلق نباحه عالياً كصوت الرعود في أذني، أما أنا فلم أكن أركض، بل كنت أطير محلقاً في الهواء من شدة الرعب.. وخلفته ورائي..!!

دخلت شارع القرية، وأنا ألتقط أنفاساً سريعة متلاحقة، وأشكر الله على سلامتي ونجاتي من ذلك الوحش الكاسر. ووقفت أحاول ترتيب هندامي، ثم توجهت الى الفندق. وهناك قابلت ذلك الرجل مرة أخرى وهو يجلس بين أقرانه ولفافة التبغ تتدلى من طرف فمه. فبادرته بالسؤال: كيف قلت لي ان هناك ماء في العين؟!

رفع الرجل بصره نحوي مستغرباً، وأجابني بسؤال: هل ذهبت الى هناك؟

تــرددت أول الأمــر فــي الإجابــة تجنبــاً لشــماتته واستهزاء مـن يجلـس بيـنهم، لكنـي أجبتـه بتحـد أهـوج: نعم.. ولم أجد هناك ماء!

ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء، وقال بسخرية مبطنة: ألم أخبرك أنهم يغلقونها في الليل..؟

***

هـل الأسـتاذ موجـود ؟

- السلام عليكم.. هل الأستاذ موجود؟
- نعم..
- هل أستطيع مقابلته؟
- لحظة من فضلك.. من حضرتك؟
- الحقيقة لدي نتاج أدبي بسيط، قصة قصيرة، أريد تقديمها لمجلتكم لنشرها.
- طيب.. تفضل اجلس..
(مضت نصف ساعة...)
- يا سيدتي.. ألا تتفضلي وتعطي الأستاذ خبراً عني..
- انتظر قليلا.. يقول الأستاذ انه مشغول الآن.. ارجع غداً..
.....
- صباح الخير.. هل الأستاذ موجود؟
- نعم.. ولديه ضيوف.. تفضل استرح وانتظر..
(مضت ساعة... خرج أحدهم)
- اعتقد لو ان حضرتك أعطيتيه خبراً عني..
- انتظر لحظة.. (تحمل سماعة الهاتف وتتصل) ثم تلتفت نحوي وتقول: تفضل.. الأستاذ في انتظارك..
- شكراً جزيلاً.. الحمد لله، جاء الفرج..
وكتلميذ يدخل غرفة معلمه، نقرت بخفة باب مكتبه، ودفعته بأدب كأني أخاف عليه من الانبعاج.
فانفرج أمامي..
يا الهي.. ما هذا المكان!؟ انه بلاط ملوك وليس مكتباً.

- السلام عليكم..

.....

- أحم.. أحم.. الحقيقة لدي قصة قصيرة أحب أن أعرضها عليكم. ولقد كان سبب اختياري لمجلتكم دون سواها هو مكانتها البارزة بين مثيلاتها، ويقيني انها المكان المناسب.

- طيب.. طيب.. أتركها مع السكرتيرة حتى أقرأها.. فسوف تأخذ بعض الوقت مني.

- كم تقريبا يا أستاذ؟ انما هي بضع صفحات فقط..

- أ.. أ.. حوالي ثلاثة شهور..

- كم؟! ثلاثة شهور.. لقراءتها فقط؟

- في الواقع ان وقتي ضيق. خذها ان شئت الى مجلة اخرى.

- أمري لله.. ليس في اليد حيلة.. (قلت في نفسي)

- طيب.. هذه هي.. في أمان الله..

(مضى شهر تقريبا)..

- ألو.. أستاذ.. أنا فلان هل تذكرني؟ لقد قدمت لك قصة قصيرة قبل مدة، وأريد معرفة النتيجة رجاءً. هل قرأتها؟

- لا ليس بعد.. قلت لك انها ستأخذ بعض الوقت.

- يا أستاذي الكريم.. باستطاعة جنابكم قراءتها خلال تناولكم فنجان الشاي.. ان سمعتكم في الأدب ضربت الآفاق.

- أحم.. أحم.. اعتقد لو تحاول الاتصال بي بعد كم

يوم..

- شكرا جزيلا..

.....

- ألو.. جناب الأستاذ..؟

- نعم.. تفضل..

- أنا.. الـ ..

- نعم.. نعم.. أريـد رؤيتـك، تفضـل الـى مكتبـي لـو سمحت..

- شكرًا جزيلا.. سأمر عليكم في أقرب وقت.

- يـا الهـي مـا هـذا.. هـل صـحيح مـا أسـمع؟! انـه يدعوني الى مكتبه، من المؤكد انه قرأ القصـة وأعجبتـه! وإلا لما دعاني لمقابلته. اذن ستفتح أمامي أبواب الـرزق والصحافة، وسيلمع اسمي بـالخطوط العريضـة.. سـأملأ الصحف بكتاباتي، وسيكون لأسمي طنّة ورنّة سأستعمله جــواز ســفر للمــرور الــى أفضــل المكاتــب وأعلــى المســتويات.. مــن الآن فصــاعدًا ســيعرفني الجميــع ويشيرون بأصابعهم نحوي..

.....

- السلام عليكم يا أستاذنا الكبير..

- وعليكم السلام.. تفضل اجلس.. اسـمع يـا سـيد.. لم يسبق لي معرفتك من قبل، ولا أريد مجاملتـك. لكنـي سأقول لك الحقيقة كما هي، فهذا واجبي تجاهكم أنـتم المبتدئون الشباب.. في الحقيقة ان قصتك جميلة وجيدة، اسلوبها رفيع، محبوكـة الأحـداث، مقـدمتها جيـدة، تتـدرج بشكل جميل، نهايتها لطيفة، لغتها.. أقصـد لغتـك عاليـة..

كلماتك منتخبة.. وبشكل عام ان القصة ممتازة بمجملها، لقد كتبتها وكأنك تعيش أحداثها وتتقمص شخصية بطلها..

- شكرًا جزيلاً يا أستاذ، هذه شهادة غالية من جنابكم أعتز بها؟

- لكن قل لي الحقيقة: من أين أتيت بها؟

- ماذا تقصد يا أستاذ؟

- أقصد، من أين نسختها؟ من أين نقلتها؟ من أي لغة ترجمتها؟ من أي مجلة؟ من أي كتاب؟

- يا أستاذ.. ما هذا الكلام؟ هذه قصتي كتبتها من بنات أفكاري.

- هل أنت متأكد اذا قمنا بنشرها، لن يتصل بنا صاحبها الأصلي ويهددنا قضائيًا.

- يا سيدي انها لي، أنا كاتبها، تأكد من ذلك.

(وهنا تغير الموقف بتمامه، وأعتدل الأستاذ في جلسته، ثم اسند ظهره الى كرسيه الجلدي الأسود الكبير..) وقال: اذن أريد ان أقول لك شيئا. ان قصتك خطيرة على قرائنا..!!

- عجيب.. كيف يا أستاذ؟ أين يكمن الخطر؟

- أنت تعلّم الأطفال حب المخاطرة والمجازفة بحياتهم، وقد يتقمصون شخصية بطل قصتك ويرتكبون حماقات كبيرة.

- سيدي.. ماذا تقول؟ أعتقد انك تبالغ قليلا، فلو كان كلامك صحيحًا، لأغلقت شركات الأدوية أبواب معاملها لوجود من يحاول الانتحار بتناول كميات من

الدواء مرة واحدة.. ولأغلقت مصانع الطائرات أبوابها، بعد أول حادثة سقوط وموت العشرات من الناس. ان كان هناك مخبول أو مجنون يحاول تقليد بطل قصتي، فهذا ليس ذنبي. ثم لا تنس حضرتك نواحي القصة الإيجابية. فلقد نثرت بين كلماتها مبادئ مكارم الأخلاق والفضيلة والشجاعة والقوة والتمسك بالصبر والتحمل والثبات والتشويق، ولم أنس إدخال بعض الكلمات الفصيحة بين سطورها. كما أحب أن أقول لك ان أول طفل قرأها وأعجب بها هو ولدي. فلو كان فيها شيء مما تقوله لما سلّمتها لفلذة كبدي.. هذا بالاضافة الى أنكم شهدتم بجودتها مسبقا..

- قلت لك لا أستطيع نشرها..

- هل تعتقد يا أستاذ، ان جميع ما تنشرونه جيّد ومفيد للقراء؟ المفروض ان تحاولوا رفع مستوى الجيل، فهم أمانة في أعناقكم لما لمكانتكم الاجتماعية من دور فعّال. عليكم بتقديم الأفضل دائما. انهم عماد المستقبل. وباعتقادي ان قصتي أفضل بكثير من بعض ما تنشرونه..

- المهم.. لا استطيع نشرها. ان كان لديك غيرها، فهاتها..

- شكرًا جزيلاً.. لا هذه ولا غيرها..

السلام عليكم.

نبيل.. والأسد.. الغبي

نبيل شاب وسيم نشيط ودود، ملتزم في عمله،

شجاع، متزوج له عدة أولاد يهتم بعائلته كثيرا، يعمل في شركة مع مجموعة من الزملاء الوافدين من دولة أفريقية.

كانت قصص زملائه تأسر لبه وتسرح به كلما استمع لهم وهم يصفون غابات بلادهم الشاسعة وما فيها من حيوانات وحشية وطبيعة خلابة..

ذات يوم قرر السفر معهم في الإجازة الصيفية القادمة لرؤية حيوانات البراري. وبقي ينتظر موعد السفر ويستعد له.

حلت ساعة السفر بين ضحك الأصدقاء وصخبهم، وما هي إلا ساعات في الأجواء، حتى حلّوا في ذلك البلد الأفريقي تحيط بهم الخضرة والغابات من كل ناحية.

لم يطق نبيل صبراً لانتظار رؤية حيوانات الغابة، ومنذ لحظة وصوله راح يكرر على أصدقائه ويلح عليهم: دعونا نذهب لرؤية الأسد.. أريد رؤية ملك الغابة..

استأجر الأصدقاء في صباح اليوم التالي سيارة مناسبة، وتوجهوا الى الغابة بعد أن اتفقوا مع دليل له خبرة طويلة في المنطقة وفي أماكن تواجد الحيوانات.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت السيارة الى أطراف غابة واسعة، فتوقفت وترجل منها ركابها.. ثم راح الدليل يشير الى أماكن تواجد الحيوانات البرية ويشرح بعض عاداتها ويذكر أسماءها ويعدد أنواعها ويحكي عن طباعها وحياتها.

إلا أن نبيل، لم يكتف بكل ذلك.. فرغبته كانت ملحة

في رؤية الأسد، لذلك راح يكرر بإلحاح: أريد رؤية الأسد..

أجابه الدليل بعد أن فقد صبره: ان الأسود تعيش في مجموعات صغيرة في أماكن خاصة، وما دمنا لا نراها هنا، فلابد أن تكون موجودة هناك بين تلك الأشجار في تلك الناحية.

قال نبيل: لنتقدم ونشاهدها.

أجاب الدليل: يبدو ان الأسود شبعة، لأنها نائمة في عرينها دون حراك.

قال نبيل: جيد جدا.. ما دام الأمر كذلك، فلا خطر من الاقتراب منها ومشاهدتها.

حاول الأصدقاء تفسير الموقف وخطورته لنبيل بقولهم: ان المنطقة مليئة بالحيوانات والوحوش المفترسة، فدعنا نشاهدها من هنا ونحن بقرب السيارة.. دعك من الأسد وموضوعه، وسنأتي في يوم آخر لنراه، فما زالت الإجازة طويلة وفي أولها.

لم يقتنع نبيل بهذا الجواب، وأصرّ على رؤية الأسد، مما دفع بالدليل أن يطلب من السائق التقدم للاقتراب أكثر من منطقة الأسود.. ثم أشار الى مكان معين وقال: انظروا.. كما قلت لكم، انهم ينامون هناك.

حدّق نبيل الى حيث أشار الدليل، فلم ير شيئًا، كانت الظلال كثيفة والأسود مستلقية بين الحشائش وخلف الأشجار.

فقال: اني لا أرى شيئًا.. دعونا نقترب أكثر.

أجابه الجميع: من الخطر فعل ذلك، فمن المحتمل ان تنزعج الوحوش فتهاجمنا.

بقي نبيل يطالب أصحابه بالتقدم.. وهم يرفضون طلبه وينصحونه بالانتظار الى يوم آخر. فما كان منه إلا أن فتح باب السيارة وترجل منها وهو يقول: لابد أن أرى الأسد..

كانت لحظات خوف ورهبة ثقيلة على قلب نبيل وهو يضع قدمه لأول مرة على أرض غابة أفريقية بين كل تلك الوحوش المفترسة.

تقدم بخطى ثقيلة الى الأمام وراح يبتعد عن جماعته وسيارتهم، وسط صياحهم وصراخهم ومطالبته بالعودة.

لم يقطع مسافة كبيرة حتى شاهد الأسد مستلقيًا بين الحشائش بهدوء وكسل، مما شجعه على التقدم أكثر.

تقدم نبيل خطوات أخرى وهو ينظر الى الأسد تارة.. وأخرى يلتفت الى أصحابه يستعرض شجاعته عليهم، وهم يشيرون اليه بهدوء حازم بضرورة العودة.

اقترب نبيل كثيرا من الوحش الهادئ.. ومع ذلك بقي الأسد لا يعير هذا المتطفل اهتمامه.

قرر نبيل تنبيه الأسد وجلب انتباهه.. حتى يقف ليراه..

فنادى عليه: يا أسد.. يا أسد.. أوو.. أوو..

لكن الأسد اكتفى بفتح عينه وإغلاقها والعودة الى غفوته.

انحنى نبيل ليلتقط من الارض حجرا ويرميه على ملك الغابة.

فلم يفتح الأسد عينيه. صاح نبيل وكرر الصياح.. ولكن لا حركة، حاول إيقاظه بتكرار رمي الأغصان والأحجار عليه، فلم يحرك الغضنفر ساكناً.

ظن نبيل ان الضرغام مريض، فالتفت ليخبر أصحابه، ويصيح بصوت عال: انه أسد مريض لا يتحرك.

وجم من في السيارة وأصابهم القلق وراحوا يشيرون عليه بالعودة، لكنه بقي لا يعيرهم اهتمامه، واستدار ليداعب الأسد (المريض)..

فالتقط غصناً طويلا، وتقدم أكثر ليحث ملك الغابة على النهوض والحركة.. بينما بقي (الملك) يحرك ذيله يميناً وشمالاً مبعداً الذباب عنه وكأنه غير آبه بهذا الغريب.

تشجع نبيل أكثر وتقدم ورفع عصاه وضرب الأسد على ظهره يستنهضه..

فقد الأسد صبره من هذا المتطفل الشجاع.. ونسي رغبته في الراحة.. وخلال ثوان كان يقف على قدميه منتصباً يستعد للهجوم.

هنا هجمت جيوش الخوف وصفوف الرعب على قلب الرجل هجمة واحدة..

وبحركات سريعة من كلا الطرفين.. تغير الوضع تماما..

الأسد يستعد للجري والتقدم..

ونبيل يرمي عصاه من يده ويستدير الى الخلف مستطلعاً طريق العودة للجري والهروب..

لم تكن المسافة بين الاثنين إلا بضع خطوات..

كانت قدما نبيل تتحرك بسرعة كبيرة.. تقفز وتتخطى الحواجز وتبتعد مخلفة الأسد وراءها، بينما الأسد يركض بسرعته الغضنفرية يحاول اللحاق بطريدته..

نبيل يركض وقلبه ينبض بشدة وينادي بأعلى صوته طالبًا من أصحابه الإسراع بالتقدم لنجدته..

والأسد يسرع خلفه بكل قوته لتأديبه وتأديب أصحابه الذين كانوا يراقبون مسرح الواقعة ويحاولون تقدير المسافة وسرعة جري الطرفين وإمكانية التنبؤ بالنتيجة..

كان صياح نبيل يصم الآذان ويتردد في أجواء الغابة طلبًا للنجدة، مما لفت انتباه جميع الحيوانات المحيطة وتشخّصت عيونها نحوه تنظر هذه الواقعة الفريدة، فهي طريدة من نوع جديد..

عندما أدرك الزملاء بخبرتهم حقيقة الموقف ونتيجته.. أسرعوا ليحتموا داخل سيارتهم ويحكموا إغلاق أبوابها عليهم، بينما نبيل يطلب مساعدتهم ويصيح مستنجدًا بالأنبياء والأولياء الصالحين..

لم يسمح نبيل لنفسه بالتعثر أو السقوط، فهو يعلم كم سيكلفه ذلك.

وبقي الوضع لبضعة ثوان كما هو.. الأصدقاء ينادون ويطلبون منه الإسراع، وهو يحاول بأقصى سرعته مسابقة الوحش خلفه.

فجأة.. وفي لحظة معينة مشؤومة.. وتحت بصر ونظر الجميع، إذا بالأسد يثب تلك الوثبة المعهودة الواثقة ويطير في الهواء ليستقر فوق جسد صاحبهم المرعوب،

فاختلط زئيره بصراخ نبيل وما أثير من غبار حولهما، وما هي إلا لحظات حتى تبين من هو الفائز، فلقد كان ملك الغابة منشغل بتقطيع أوصال جثة نبيل الهامدة، والزملاء والدليل وسائقهم ينظرون الى هذا المشهد تظللهم سحب المفاجأة وغيوم الخوف.

ومما زاد الطين بلة.. ان بقية أفراد العائلة المالكة.. تقدمت لمد يد العون والمساعدة، فأجهزوا على بقية أشلاء جسد نبيل والتهموه، تغريهم نوعية الوليمة الجديدة، ولم يتركوا منه شيئًا للذكرى، ونظفوا المكان وكأن شيئًا لم يكن، ثم عادوا الى عرينهم ليستلقوا تحت ظلال الأشجار الوارفة دون حراك.

وحتى اليوم.. ما زالت أرملة نبيل تعرف داخل الحارة، بأرملة من أكله الأسد.. الغبي..

ضيافة رسمية

اقترح أحد الأصدقاء قضاء عطلة الصيف في بلد شقيق. فأعجبتنا الفكرة، وشرعنا بترتيب مستلزمات السفر ومعداته، واتفقنا مع صاحب حافلة صغيرة للذهاب معه. كان عددنا خمسة عشر شاباً وشابة بين اخوة وأخوات وأبناء عم وأصدقاء.

مضت السيارة بنا، وقطعنا المسافة الى نقطة الحدود ونحن منشغلين بالغناء والرقص والضحك. قال السائق لحظة وصولنا مبنى جوازات البلد الشقيق: عليكم بالهدوء والسكون.. فرجال هذا المكان في غاية قلّة الأدب والشراسة ويعاملون القادمون الى بلدهم كأنهم مجرمون، ليس بينهم من يستمع لتظلّم او شكاية، اني أشعر بالإعياء كلما مررت بهذا المكان، فالمسافر يصبح تحت رحمتهم تماماً ويجد نفسه مجبراً على مجاراتهم والسكوت درءاً لأذيتهم. فهم يدركون مقدار انعزالهم وابتعادهم عن أقرب نقطة مأهولة داخل البلدين، فيستغلون ذلك لظلم الناس وابتزازهم.

أنهى السائق كلامه، وخرج متجهاً نحو الموظف المسؤول وبيده جوازات سفرنا يطلب منه تأشيرة دخول للجميع.

كان تجهّم وجه الموظف الجالس خلف شباك مكتبه، وعبوس سحنته، يشيران بوضوح الى وضاعة نسب عائلته، بينما تدلت لفافة التبغ المعلقة بإهمال بالغ في زاوية فمه، ودخانها المتصاعد وهو يمسح وجهه الكالح، وتناثر رمادها على أوراق المسافرين أمامه، إضافة الى دمدمته وتذمره الدائم وكسله الواضح، أنه يتقصد التحرش بالمراجعين عسى أن يبدي أحدهم ملاحظة بسيطة فينقض عليه.

كان مجرد النظر اليه يحجم المراجعين عن الـدخول معـه بأي نقاش مهما كان بسيطاً، خوفًا مما لا تحمد عقباه.

عندما جاء دور سائقنا ومـد يـده ليسـلمه مجموعـة جوازات سفرنا، استلمها ببـرود واحتقـار وراح يتصـفحها.. وإذا به يتوقف فجأة عند أحـدها وراح يمعـن النظـر فيـه ويدققه.. ثم نهض وحمله بيده ليدخل غرفة خلفية.

دقائق وعاد ليكلم السـائق ببضـع كلمـات. انسـحب هذا على أثرها ليتوجه نحونـا وينـادى باسـمي مـن دون بقية الأصدقاء.

استغربت وسألته عن السبب.

قال: لا أدري.. يريدون مقابلتكِ.. انه إجراء روتينـي، وليس هناك ما يدعو للقلق.

توجهت نحو الموظف، فبادرني بالسؤال:

هل أنت صاحبة هذا الجواز؟

- نعم.

- تفضلي وادخلي، فالضابط يريد مقابلتك.

- لماذا؟

- لا أعلم.

توجهت نحـو غرفـة منزويـة مظلمـة تمـلأ أجواءهـا رائحة الدخان والعفونة.. فشاهدت ضابط شرطة يجلس خلـف مكتـب قـذر علتـه الأوراق والأتربـة، أزرار سـترته مفتوحـة ولحيتـه طويلـة وعينـاه حمـراوين يتطـاير منهـا الشرر. وبمجرد رؤيتي ارتسمت على وجهه ابتسامه خبيثة أدركت نوعيتها على الفور.

قال: هل هذا جواز سفرك؟

- نعم.
- تفضلي واجلسي. عندي بعض الأسئلة.
- هل زرت بلدنا من قبل؟
- كلا. هذه أول مرة.
- وما سبب الزيارة؟
- السياحة والاستجمام.

صمت قليلا ثم عاد يتفحص جواز سفري وكأنه يبحث عن شيء ما.

قلت: هل هناك خطأ؟

أجاب ببرود: كلا. في الحقيقة تبدين صادقة في كلامك. ومظهرك لا يدل على أنك الشخص المطلوب.

قلت: عن ماذا تتكلم؟ أنا فتاة جامعية ومن عائلة محترمة معروفة في بلدي.

أجاب: نعم.. نعم.. أنا أصدقك. لكنه مع الأسف لا يمكنني السماح لك بالمرور. عليك بالعودة من حيث جئت..

قاطعته: أنا في رحلة مع أهلي وأصدقائي، ومن الصعب عليّ العودة لوحدي كل تلك المسافة.

قال: في الحقيقة، أنا أود مساعدتك، بينما المفروض أن ألقي القبض عليك. انه كرم أخلاق مني أن أتركك تعودين الى بلدك وكأنني لم ألتق بك. إن دخلت بلادنا، فسيلقى القبض عليك ولن تخرجي، وستحتاجين لشهور طويلة لإثبات براءتك.

أرعبني اسلوب كلامه وهدوء أعصابه.. كنت متأكدة أنه يحيك شباك مكيدة ما. فتناولت منه جواز سفري وأنا

مقتنعة بالعودة الى وطني وتجنب مخاطر هذه السفرة.

عدت للحافلة لأخبر أصدقائي بالموضوع. فانقسموا بين مؤيد لإكمال السفرة ومخالف لها. في النهاية، اتفقوا على المضيّ في سفرتهم بعد اطمئنانهم على استطاعتي تدبر أمري.

شعرت بخيبة أمل في قضاء رحلة جميلة مع أصحابي، وأنا أرى الحافلة تبتعد وتختفي في الأفق بين أكوام الرمال وسراب الصحراء. تلفت حولي أبحث عن وسيلة أعود بها الى بلدي. فاذا بنفس الضابط يقف الى جانبي ويسألني: هل تبحثين عن سيارة للعودة؟

- نعم.

- يمكنك الاستراحة قليلا في مكتبي بعيدا عن حرارة الشمس، واتركي أمر تدبير السيارة لرجالي، فنحن هنا لخدمة المواطنين، وهذا من صميم عملنا.

اعتذرت له بطرق مختلفة في محاولات جادة مني للتملص من تلبية دعوته، لكنه بقي يلح عليّ بطرق مختلفة مؤدبة لدرجة أنني وقعت في حرج كبير. في النهاية وافقت على تلبية دعوته. فذهبت للجلوس في مكتبه تخلصاً من لهيب جوّ الصحراء القاسي في انتظار سيارة قادمة.

فجاءني الخادم وهو يحمل كوباً من العصير البارد.. قدّمه لي ثم انسحب.

كنت أحاول بشتى الوسائل اختصار حديثي معه وتجنب فتح مواضيع جديدة جانبية، ومع ذلك كان هناك بعض السؤال والجواب. وفهمت منه انه معاقب بالنفي

الى هذه المنطقة النائية، ولا يمكنه زيارة أهل بيته إلا كل عدة شهور.

وبينما نحن كذلك، كنت ألمح - بين الحين والآخر - غريب نظرات الموظفين تجاهي، وهم يدخلون ويخرجون لأداء بعض مهام عملهم. فلم أفهم ما يجري ولم يخامرني شك في محدثي، خاصة وأنا أجلس في دائرة رسمية وتحت علم دولة وحكومة كبيرة.

فجأة.. بدأت أشعر بدوار في رأسي وشعوراً بالنعاس.. ولم أفتح عيني إلا والظلام يخيّم على المكان. حاولت النهوض فمنعني صداع شديد، مددت يدي للاطمئنان على هندامي، فاكتشفت أنني نصف عارية! يا ألهي.. انه فخ. انهم عصابة.. لقد خدعني النذل الحقير.

شعرت بحركة غريبة في المكان.. التفت الى مصدرها.. فاذا بوجه رجل لم أره من قبل.. وبمجرد ان رآني أفيق، صدرت منه ضحكة ماجنة، ثم قال: أنت تنامين كثيراً.. في الحقيقة لم استطع كبح جماح رغبتي.. خاصة وجمالك قد أسر لب الجميع منذ أول رؤيتنا صورتك في جواز السفر.

حاولت لملمة نفسي وجسدي والبحث عن ملابسي وأنا أستمع لحديث هذا السافل وما يقوله ويعنيه.. إلا أنني لم أجد ما يسترني.. تمنيت ساعتها لو ان الأرض تنشق وتبتلعني، أو كان بيدي شيء أغرسه في قلب هذا الحقير.. الا انه ومع كل سورة حقدي وغضبي، لم ينفعني شيء أمام وحشيّة هذا المخلوق وثقل جسده

فوقي ولفحة أنفاسه العفنة على عنقي.. كنت كبركان مكتوم يموج بحمم الغضب والعصبية. لكنه أسقط في يدي.. فصرخت بأعلى صوتي من أعماق قلبي.. الا ان أحداً لم يجبني..

لملمت أذيال عاري.. وغرقت في دموعي ونواحي، وانطويت على نفسي في زاوية الغرفة، أفكر بهذه المصيبة وكيف حلّت على رأسي، وماذا سأقول لأهلي وأصحابي. ومضت تلك الليلة بدقائقها الطويلة ولحظاتها الرهيبة وأمواج الأفكار تتلاطمني من كل صوب وناحية، أشرب من أيدي هؤلاء الوحوش السفلة أنواع كؤوس الذلّة والهوان، وأسمع منهم ما لم أسمعه في حياتي من حقير الكلام.

في صباح اليوم التالي، دخل عليّ أحدهم ليخبرني ان هناك سيارة تنتظرني. فشعرت بمرارة هزيمة مرّة لم أذقها من قبل وتمنيت ساعتها البقاء للانتقام. لكني أدركت مقدار عجزي أمام هذا المخطط القذر. وسمعت من ورائي صوتاً يقول بسخرية واستهزاء وتبجح: لا تتكدري.. فأنت لست الأولى ولا الأخيرة. سوف تنسين ما حدث مع الأيام..

الحوت

ترتفع درجة حرارة مياه الخليج العربي في أيام الصيف الى مستويات عالية، وتنتشر الرطوبة لشهور طويلة، فيغري هذا الجو الدافئ قطعان الحيتان والدلافين وغيرها من الأسماك للمجيء الى مياهه وشواطئه بحثاً عن الدفء والطعام، ومن السهل مشاهدة جموعها وهي تقفز وتسبح زرافات فوق سطح الماء قرب الشواطئ بأشكالها الجميلة وحركاتها المتناسقة الرشيقة.

من بين تلك المدن الجميلة التي تفترش مياه الخليج الفضية بسكون لا يعرفه إلا ساكنوها، مدينة أبو ظبي الرائعة، حيث يحيط بها كاسر أمواج صخري جميل تشكّلت بينه وبين شواطئ المدينة بحيرة داخلية جميلة هادئة تصلح للسباحة اللطيفة المطمئنة.

حدث ذات يوم ان دعاني صديق للخروج معه في زورقه لاصطياد السمك. فوافقت بشرط ان يكون نطاق ممارسة هوايتنا، بحيرة ساحل المدينة الداخلي لا خارجها، فأنا لا أثق في البحر ولا بالسمك ولا به. فوافق صاحبي مبتسماً وهو يعلم مقدار خوفي من التوغل داخل مياه الخليج.

وبينما نحن في وسط المياه نرمي بالسنارة مرة ونسحبها أخرى. اذا بي أشعر بحركة غريبة الى جانبي

في وسط المياه. التفت نحوها أبحث بعيون الخائف المتشكك، فلم ألاحظ سوى حركة دوائر الماء تتسع في كل اتجاه. وبتكرر الحركة والصوت، أدركت انها سمكة كبيرة حوصرت داخل هذه البحيرة وظلت طريق خروجها. وبدافع الخوف والاضطراب تعلقت عيني في أرجاء المكان أراقبه وأنا أتوقع ظهور سمكة كبيرة أو دلفين يحاول مداعبتنا. فلم تمض الا لحظات، وأنا بين الحقيقة والخيال، واذا بحوت عملاق يصطبغ باللونين الأبيض والأسود يخرج رأسه من تحت الماء بفك كبير وأنياب تشبه منشار رهيب ثم يتبعه جسد ضخم أمتد طوله لأكثر من عدة أمتار انتهى بزعانف ذيل كبير بحجم قاربنا. خرج ودخل هذا العملاق من الماء، ولم يعكر سطح ماء البحيرة الهادئ الجميل، وكأنه لم يخرج ولم يغص، مما أطار صوابي وأفقدني ثقتي بنفسي وبالقارب وبصديقي. لم أستطع السكوت والصمت، فأبلغت صاحبي بما رأيت وأنا أخاف ان يسمعني الحوت. فرد بصوت الواثق المعتد بنفسه:

هذا من تأثير حرارة الشمس على رأسك.. فلا وجود للحيتان في هذه المنطقة، وما هذه إلا سمكة عادية لا خوف منها.

فأجبته: معك حق. فأنت لم تشاهد طولها، انها تزيد على السبعة او الثماني أمتار، ومن المحتمل ان يكون من الأنواع القاتلة التي نراها في أفلام السينما.

فقال: دعني أراها عند خروجها لنتأكد.

لم ننتظر أكثر من لحظات حتى عادت لتخرج من جديد من مكان آخر ثم لتعود وتغوص مرة أخرى وكأنها قطار. وهنا أصفر لون صاحبي ورأيت الرعب في عينيه وكأنه يريد ان يلقي بنفسه الى الماء هرباً منها. الا انه تمالك نفسه وتظاهر بالبطولة والهدوء وهمسني بقوله:

انه حوت محصور يبحث عن فتحة للخروج من البحيرة الى مياه الخليج الواسعة.

قلت له بصوت خافت مرتجف: أعرف ذلك، إلا اني أخاف ان يكون مرتبكًا او غاضبًا او خائفًا فيهاجمنا.

قال: لا تخف. سأدير محرك القارب ونبتعد عنه.

قلت: لا.. لا تفعل، فمن المحتمل ان يثيره صوت المحرك فيهاجمنا.. دعنا ننتظر.

لم أكرر في حياتي قراءة "سورة الكرسي" قدر تلك الدقائق واللحظات وبكل ذلك الصدق. وجلست وصاحبي داخل زورقنا نراقب حركات ذهاب وإياب الحوت وهو يبحث عن مخرج له. والحق يقال، كان شكله جميلاً وجسمه رائعًا ولونه أسودًا مصقولاً لامعًا

ولون بطنه أبيضًا لطيفًا.

مددت يدي أتجسس عضلاتي وأعـدها للسـباحة اذا قفزت الى الماء هربًا منـه، وشـعرت بقلبـي ينـبض ألـف مرة في الدقيقة، بل وخـلال لحظـات خشـيت أن يسـمع الحوت دقات قلبي.. فيهاجمنا.

أخيرًا، ابتعد الحوت وعثر على فتحة الخروج وذهـب دون رجعة، بعد ان نشف الدم في عروقنا.

فألتفــت نحــو صــاحبي بعــد ان شــدّني هــدوءه وسكونه، فاذا به مغمى عليه من شدة الخـوف. أيقظتـه برش الماء على وجهه وعاتبته بقولي:

يا رجل! ما هذا؟ أين شجاعتك التـي كنـت تتظـاهر وتتبجح بها؟

فقال بعد أن أفاق وهو يتلفت في كل اتجاه يبحـث عن الحوت يسارًا ويمينًا:

أين هو؟ هل ذهب؟ فأنا لا أعرف السباحة!

رفيـق سـفري

لي صديق عزيز، يكثر السفر الى إحدى دول جنوب شرق آسيا للتجارة والعمل، ونتيجة لتكرار أسفاره، اعتاد السكن في فندق قريب من مكان عقد صفقاته وتمشية معاملات تجارته. وبمرور السنين اعتاد الطرفان على بعضهما، وازدادت العناية بصاحبي من قبل صاحب الفندق وموظفوه باعتباره زبون دائم.

تصادف ذات يوم أن قررت السفر الى نفس ذلك البلد لقضاء بعض الأعمال، فاقترح عليّ صاحبي السفر معه والسكن في نفس الفندق لمشاركته ما يتمتع به من امتيازات وخدمة جيدة. فاستحسنت الفكرة وسافرت معه.

كانت المدينة جميلة جدا بنظافتها وتنظيمها، بشوارعها ومعارضها، بأهلها وناسها.. ولم يمض وقت طويل حتى وقفنا في صالة الفندق يحيط بنا الموظفون ومديره وهم يقدمون لنا أنواع التحية وأشكال الاحترام.

والحقيقة أنني أعجبت بكامل مزايا الفندق، وبما أن الوقت كان ظهراً، اقترح علي صاحبي تناول طعام الغداء ثم الخروج لتكملة أعمالنا.

دخلنا المطعم واتخذنا لنا مجلساً، فهمس صاحبي في أذني: أريد أن أقدم لك اليوم نوعا من الحساء اللذيذ لم تتذوقه في حياتك من قبل، أنا شخصياً أتناوله هنا منذ عشر سنوات ولم أملُّ منه.

وبينما صاحبي منشغل بوصف محاسن مذاق الحساء، اذا بالخادم المختص يقف بين أيدينا بكامل

أناقته كما لو كان مديراً عاماً في بلادنا.

فطلب منه صاحبي حساءه المعتاد.. وما هي الا دقائق حتى وضعت أمامنا سلطانية كبيرة تفوح منها رائحة زكية.. فمد الخادم يديه ليفرغ منها في صحني وصحن صاحبي.

وقبل أن أمد يدي لأتذوقه، خطر في ذهني الاستفسار عن ماهيته، فلقد خشيت أن يكون حساء مطبوخاً بلحم خنزير أو حمار أو ما شابه.

رفعت رأسي الى صاحبي ألقي عليه سؤالي، وأنا أنظر الى الخادم في نفس الوقت: مم طبخ هذا الحساء؟

فرد صاحبي وهو يبتلع ما في ملعقته: لا أدري..

نظرت الى الخادم أنتظر منه الجواب: فأجاب بكلمة لم أفهمها..

في هذه اللحظة رأيت وجه صديقي يمتقع وهو يبصق ما في فمه بطريقة غيرت لون غطاء الطاولة، وصرخ: ماذا؟

كرر الخادم المسكين الكلمة مرة ثانية.

فصاح صاحبي في وجهه، وهو يشير علي بالتوقف: إنه حساء صراصير!؟

مصادفات

كما هي العادة، صدرت الأوامر من زوجتي بالتوجه لمعرفة مكان شقة صديقتها الجديدة التي انتقلت اليها قريبا.. وبما اننا كنا سنغيّر شقتنا كذلك، لذا كان من الضروري الإسراع للتعرف على مكان السكن الجديد وتحديد موقعه قبل افتراق الصديقتان.

لم يكن قد سبق لي رؤية صديقة زوجتي ولا زوجها.

لذلك فضلت اصطحاب زوجتي معي لتكون الزيارة ذات شقين، الأول معرفة المكان الجديد والثاني تعارف العائلتين.

في الطريق سألت زوجتي عن المكان. فأجابت انها لا تعرفه بالضبط لكن من خلال وصف صديقتها بالهاتف، فإنها تسكن في بناية ذات عشر طوابق هي الوحيدة بهذا الارتفاع في المنطقة.

قلت: شيء واضح وجميل.

توجهت الى المكان، فرأيت بناية شامخة كما وصفتها تماما. فترجلنا من السيارة ودخلنا الى البناية.

سألتها: أي طابق، وكم هو رقم الشقة، يا أم فلان؟

- السادس، شقة رقم 601

دخلنا المصعد وكبست الزر المطلوب.

لم يستغرق العثور على الباب ورقمها وقت طويل. كان اسم ساكنها منقوش عليها.

فسألتها: هل هذا هو اسم الزوج؟

أجابت: نعم. ولكني لا أعرف اسمه كاملا.

كبست زر جرس الباب، فخرج رجل تبدو عليه معالم الاحترام والوقار. فبادرني بالسؤال عن بغيتي. وبحركة سريعة.. وقبل أن أجيبه، سحبت زوجتي الى جانبي، معتقداً انه سيتعرّف عليها، وبذلك سأتخلص من بعض حرجي وربكتي وأعطي معنى لسبب وقوفنا أمام باب بيته.

لكنهما لم يتعارفا، مما زاد في اضطرابي. فتدخلت محاولا تفسير الموقف وقلت: في الحقيقة ان زوجتي صديقة صاحبة البيت ولقد جاءت لزيارتها.

فانتقلت علامات التعجب والاستغراب من وجهي الى وجه الرجل، ومع ذلك، أومأ لنا بيده للدخول.

اتخذنا لنا مجلساً بين أثاث صالة منزله الفاخر، بينما استأذن هو ليعطي صاحبة البيت علماً بوصولنا.

أسرعت أسأل زوجتي بصوت خافت: هل صديقتك على هذا المستوى من الثراء؟

قالت: لا.. لا أظن ذلك.

- وهل هذا الرجل هو زوجها؟ يبدو لي انه لم يعرفك.

فأجابت: لا.. لكنه قد يكون أحد أقاربها.

هنا بدأت سحب الشكوك تتجمع داخل رأسي، لأني لاحظت تصرفات الرجل تشير وكأنه صاحب الدار.

بعد فترة قصيرة، عاد الرجل ليجالسنا وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه. فبادرته بالسؤال:

- هل أنت صاحب البيت؟

كنت متأكداً من أجابته بالنفي، الا انه أجاب: نعم. أنا

هو.

فأحسست بالحرج الشديد وتضارب الأفكار في رأسي.

وتصحيحاً للموقف سألته:

- هل اسم زوجتك سميرة؟

قال: نعم.

التفتُ الى زوجتي وقلت لها بصوت خافت: ما هذا؟ هل هذا هو زوج صديقتك؟

فأجابت: لا؟

احتجت لبضع ثوان من الصمت لأدرك شدة الالتباس وغرابة الصدفة غير المعقولة في تشابه الأسماء والمكان.

وبينما أنا في خضمّ تلك الدوامة، اذا بفكرة جديدة تخطر في ذهني:

ماذا لو شكّ الرجل بصحة دعوانا، وظن أننا نصّابين أو لصوص نمثل عليه أحد أدوار النصب والاحتيال؟

هنا ظهرت أمام عيني صورة سيارة رجال الشرطة وهي تنقلني وزوجتي بين صفارتها المدوية وأضوبتها المتلألئة وجموع المحتشدين، وتصورت ما سنلاقيه من مشاكل لإثبات براءتنا وتوضيح شدة الالتباس. ومما أطار صوابي أكثر، احتمال حاجتنا الى شهادة نفس العائلة الصديقة المقصودة بالزيارة لتأكيد ادعائنا، وبما اننا نجهل مكانها الحقيقي، فقد تيقنت من صعوبة خروجنا من هذا المأزق الملتوي.

وقبل خروج صاحبة البيت ـ زوجة الرجل ـ للقائنا،

تصنّعت ابتسامة خجلة في وجهه، وقلت له: نحن آسفون جداً، يظهر اننا وقعنا في التباس كبير.. فنحن قادمون لزيارة عائلة أخرى تسكن هذه المنطقة، في الطابق السادس من بناية ذات عشر طوابق، رقم شقتهم 601، اسم صاحب البيت نفس اسمك.. وللعجب اسم زوجته نفس اسم زوجتك.. فهل تصدق هذا؟!

طرحت عليه سؤالي الأخير وأنا أسحب يد زوجتي نحو الباب غير منتظر جوابه.. إن كان بالنفي أم الإثبات.. فلقد كان الخوف يعصر قلبي من احتمال اعتراضه طريق خروجنا إلا بصحبة رجال الشرطة. وحمدت الله كثيراً ان زوجتي كانت معي، وإلا لكان الرجل قد شك في أمري وطلب لي الشرطة لا محالة، او لكنت جلبت له الظنون والشكوك نحو سلوك زوجته المسكينة بما قصصته عليه من حكاية لا يصدقها عقل عاقل..

الكابوس

كعـادتي جلسـت أحلـم مسـتيقظاً بـالثروة والمـال والحال الميسور وتقليد طبقة الأغنياء في مختلف الأمور
أصـبح حلمـي الجميـل مسلسـلاً لا ينتهـي يتبعنـي كظلي..
أستغرق فيه كلما زادت وتعقدت مشاكلي
يجول معي في الشوارع والطرقات
يفتح عيني مثل كشافات
تمسح الأرض لعلّها تعثر على محفظة سمينة تحـلّ ما استعصى عليّ من أزمات
رأيتها.. عند جدار المصرف.. مركونة..
راقبتها.. حقيبة لا صاحب لها.. انها لقطة مضمونة
لكن نظرة الحارس جمّدت الدم في عروقي..
إذا حملتها.. هل سيقفز صائحاً.. حرامي.. حرامي؟
أم سيعود للفافـة تبغـه والـدخان.. ويتركنـي أغـادر المكان؟
حملتها ويداي ترتجفان..
وأسرعت بمغادرة المكان..
دخلت بيتي لاهثاً.. وعلى سريري جلست القرفصاء
وضعتها في حجري، فتحتها بلا عناء..
لحظات.. وإذا بالنور يختفي من المكان!
ما هذا.. هل تغيّر شكلي وتبدل المكان؟
آثار الدماء ولحمي يزيّنان الجدران!
التراب والغبار..
وحولي تتناثر الأحجار..
والبناية تهتز وتنهار..

يا الهي.. انها مملوءة بالسكان..
صراخهم يصمّ الآذان..
تجمعـوا حـولي، وأدركـوا انهـا قنبلـة انفجـرت فـي يدي..
.....
ها نحن نتجه نحو السماء..
الى عادل القضاء..
قاعة وشهود وقفص اتهام..
وأنا المتهم الذي أدان..
صدر حكم العدل ضدي، فسحبني حارسان..
وسلكنا طريقا يقف على بابه مخلوقان..
فانتابني الهلع والخوف والهذيان..
انها فقط البداية.. والله أعلم بالنهاية..
.....
انزلقت في ممر طويل في السماء،
تملأه النيران ورائحة الشواء، وصوت غليان الدماء..
فشخرت بالنيران،
وانفجـر رأسـي وانقـبض الصـدر، وكالشـمع ذابـت اليدان..
زاد انزلاقــي ولــم أعلــم الــى أيــن أمضــي فــي الحسبان..
لكني أدرك اني في النهاية مسـتقر.. لا محالـة فـي سقر..
طرت في فضاء..
أسبح الى أسفل في هواء..

شيء مرعب ومخيف..
أدركت اني تبخرت وانتهيت..
لكني عدت لأتجمع وأتبخر من جديد؟!
النيران تأكل جسدي..
هل حدث هذا في ثوان؟
من أنا.. كائن أم انسان؟
كم مضى عليّ من الزمان؟
في دمي تصفر النيران..
تأكلني تحرق ذرات جسدي..
في كل خلية حريق..
وفي كل موضع نار ولهيب..
أنا أشتعل.. أنا أحترق..
مياه البحر لا تكفي لإخماد هذا الحريق..
اشتعلت كنشارة خشب رقيق..
ما هذا؟ أما أزال ساقطاً؟
أذن أين المفر والى أين المستقر؟
هل هذه البداية، أم هي النهاية؟
في الأسفل رأيت ملايين البشر..
يضيئون ويحترقون كاللهيب..
قاربت الوصول..
الى أين؟
الى الهاوية.. الى الجحيم..
غصت في بحر لا قاع له من النيران..
حاولت العودة والصعود،
جربت أن أعود..

بدأت بالعويل والصراخ..
محاولاً الخروج والفلاح..
ما هذا.. يا الهي ماء؟!
من أين جاء؟
هل هي حقيقة أم خيال؟
ولمن أوجه السؤال؟
يد تمتد نحوي، تمسح رأسي..
وصوتٌ ناعم رقيق يطرق أذني..
الحمد لله على السلامة..
حرارتك كانت عالية..
وزال عنك خطر عظيم..
هكذا قال الحكيم..
مَنْ.. يا إلهي.. إنها زوجتي.. نسيم!

محـاورة

ما هي هوايتك؟
- السباحة وكرة القدم ومشاهدة برامج التلفزيون.
- ألا تقرأ شيئا؟
- نعم.. الصحف اليومية.
جميل.. وماذا يعجبك من صفحاتها؟
- الرياضة.
ألا تقرأ غير ذلك؟
- الصحيفة كريهة مملة بمحتوياتهـا، غالبيـة أخبارهـا سياسية، وأنا لا أحب السياسـة ولا السياسـيين، فكـل مـا يكتـب كـذبًا وكـل مـا يقـال ريـاء وكـل مـا يسـمع دجـل، والهدف الأول والأخير للجميع هو الأنا والمصلحة الذاتية. إضـافة الـى انهـا مملـوءة بالأخبـار المرعبـة، "مقتـل 50 شخصـًا تحـت أنقـاض بنايـة"، "احتـراق حافلـة بركابهـا"، "غرق سفينة تنقل أطفالا "، "استلام فـلان للسـلطة بعـد ثورة حمراء"، "أم تقتل عائلتها"، "مجنون يطلق النار في مطعم مزدحم".. ومثل هذه الأخبار..
- هذا صحيح.. وماذا عن مواضيع الثقافة؟
- أنا لا أفهم ما يكتبون.
وماذا عن وقت فراغك؟
- أبـدًا لا أملـك وقـت فـراغ. فبعـودتي مـن العمـل أتناول غدائي واستريح قليلاً ثـم أخـرج لممارسـة رياضـة السباحة مع أصدقائي، وعند الغروب أكـون جالسـًا أمـام

التلفاز أشاهد برامجه حتى النهاية. كما اني مشترك في مكتبة.. للفيديو، استعيض بمحتوياتها عن البرامج المملة.

- ألا تهتم بمشاكل الناس والدنيا وأخبار العالم؟

- ولماذا؟ ما دمت آكل وألبس وأعيش وعائلتي بخير.

- لكننا لا نستطيع الانسلاخ عن مجتمعنا وعالمنا؟

- هذا كلام ينفعك. أما بالنسبة لي فهذا العالم لا يساوي شيئاً.. اني والحمد لله ميسور الحال وعملي جيد وأولادي بخير.

- لكن هنالك آلاف الناس لا يجدون عملاً ولا يجدون كسرة خبز، ولا يعرفون الراحة والسعادة التي تتكلم عنها.

- أين هؤلاء؟ فأنا لا أجدهم.

- ألا ترى الجائعين والعراة والبائسين في جميع أنحاء العالم؟

- هذا كلام فارغ لا معنى له. فماذا يهمني من كل هؤلاء؟ أنا لست مسؤولاً عنهم وعن مشاكلهم. دع هذا عنك ولا تصدع رأسك بمثل هذه الأمور، فكل شيء متجه نحو الأسفل ومنحدر نحو الهاوية. العاقل من يخلص نفسه. ألا ترى أن كل واحد ينادي "يا نفسي"، أنت لا تستطيع إصلاح العالم. دعني أخبرك شيئا. إنك حتى لا تملك القدرة على إصلاح أمور نفسك.. أنت كمن يفكر في تحلية مياه البحر.. ثم هل تعتقد انك سوف تجد من يسمعك أو يساعدك، بل على العكس ستجد من يحاول الاستهزاء بك ومعارضتك والاعتداء على

حياتك. أرجوك ان تكف عن هذا.

- ولكننا نعود الى الوراء ونتخلف، ألا ترى حالة البشرية وما آلت اليه؟ ألا ترى الفرق بين الحاضر والماضي؟ ألا ترى الفرق بين جيل اليوم وجيل الأمس؟

- تتكلم كالمجانين.

- وأنت تتكلم كالجهال.

- أنت من جماعة الورود البنفسجية وشمس الربيع والابتسامة الطفولية وطير المحبة وأوراق الخريف وخرير مياه الجداول. ألا ترى دولاب الخراب يسرع خطاه ليلف جميع أهل الأرض. ألا تشاهد النهاية وهي قريبة من الجميع؟ والحروب تملأ الأرض، فيضانات، زلازل، زوابع، أعاصير، أوبئة، أمراض، جوع، عري، قتل، تدمير. يا أخي نحن بحاجة الى تغيير جذري من الأعماق..!

المظـلـوم..

لي عشرة شهور في هـذا المعتقـل الرهيـب، كـان عددنا يوازي أربعة أضعاف ما يسعه المكـان، ولـم يكـن هناك غير ثلاث حمامات نتنة الرائحة تطفـح بالقـاذورات، وعلينا الاستحمام جميعا خـلال النهـار فـي نصـف سـاعة وقضـاء الحاجـات. فـي بعـض الأحيـان نضـطر لـدخول الحمام أزواجا فنجلس وظهورنا متلاصـقة لـبعض. ومـع ذلـك.. فعنـدما يحـين وقـت الجلـد والضـرب، نتـزاحم ونتراصص في ركن واحـد ليخلـو نصـف المكـان، وكلمـا تناقص العـدد نتيجـة القتـل أو المـوت والاختنـاق، جـيء برتل آخر من جديد، وكأن هذا الرافد لا ينضب ولا ينتهي.

ذات يوم.. جـاءوا بشـاب صـغير تبـدو عليـه معـالم الضرب والكدمات، هيئته تفصح عن حسب ونسب وثراء، لكن المكان كان يعـج بالهـاربين وأبنـاء العـاهرات، فلـم يجد المسكين مكانا يقف عليـه إلا خلـف البـاب. ملابسـه غاليـة، وتـزين معصـمه سـاعة ثمينـة، وفـي يـده خـاتم

مرصع وحول عنقه سلسلة ذهبية. نحيف وسيم لم يتعد العشرين، شخصت اليه الأبصار وتعالت الضحكات وحيكت حوله المؤامرات.

لم تمض ساعة، حتى طلب المسكين ماء، فضحك لئيم من أولاد العاهرات وقال: كم تدفع؟ هات.. أخرج الفتى بعض الدريهمات. أما في وقت الغداء.. فلقد اشتد التدافع وتعالى الصياح والصرخات، فعجز من الحصول على بعض اللقيمات، كان التنافس شرساً بين هذه المخلوقات، إنها حرب ضروس وليس مجرد تناول طعام أو مشروبات.. وكل ما في الأمر.. انهم يوزعون رديء الأكل وبعض الخبزات.. العدد كبير والمكان مخصص في الأصل فقط لبضع عشرات، تتانة المكان شديدة لا ينفع معه فتحة النافذة الصغيرة في أعلى السقفات.

بقيت أراقبه كيف سيتعامل مع كل هذه المشاكل والأزمات، وعندما اختطفوا علبة سجائره ووزعت بين المجرمين والعتاة، عاد ليطلب سيجارة من أحدهم، فقال له: كم تدفع؟ هات.. أريد شربة ماء، ولا عندي ما

آكل أو أقتـات، إذن فملابسـك والسـاعة والخـاتم مقابـل الخبز والغـداء.. و(...) مقابـل نـوم سـاعة واحـدة علـى الأرض أو البطانيات.

في الصباح.. لم يكن يرتدي المسكين غيـر ملابسـه الداخلية، فوقف خلـف البـاب الحديديـة، والعـرق يتصـبب منه بين ضحك المجرمين والسخرية، خجل شاحب الوجه منهـار القـوى. أراد أن يجلـس.. فلـم يجـد مجـالا ليمـد قدميه.. تحرش به الجالس على يمينه ومـد أصـابع يديـه بين فخذيه.. فحاول الرد والاعتراض.. إلا أنه تلقى ضربة جاءت من الشمال فجائية، فصاح بأعلى صوته مستنكرا.. لكن أحدًا لم يجبه.. فطفح به الألم والحزن.. ثـم انفجـر ومات من الأذية..

ورغم الزحام وتلاصق الأجسام، والجميع يعلـم مـا جرى ودار حتى بـين النيـام، إلا أنهـم صـمتوا ولـم يشـهد أحدهم أو يتقدم لتوضيح القضية، فهناك قوانين وأحكـام جميعها تنتهي.. بالمشنقة والإعدام..

المسـافر كالمجنـون

غالبًا ما تصـيبني حالـة اضـطراب عصـبية ونفسـية شـديدة مصحوبة بحركات لا إرادية مع إسهال شديد وأرق عجيب كلما اقترب موعد إجازتي السنوية للذهاب الى بلدي لزيارة الأهـل والأصدقاء.

وهـذه الحالـة لـم تكـن إلا بسـبب مـا كنـا نلاقيـه وأصدقائي مـن سـوء معاملـة رجـال المطـار والشـرطة والأمــن والمخــابرات، فمهمــا حاولــت تهدئــة نفســي للسيطرة على تصرفاتي.. لم يكن يجدي نفعـًا، بـل كنـت ازداد سوءًا فوق سوء.

كانت هذه الحالة تصل ذروتها في ساعات ودقـائق سفري الأخيرة، فتصدر مني أحيانا تصـرفات لا يؤاخـذني عليها من يعرفني جيدًا.

وأتذكر اني راجعت طبيبًا من أبناء جلدتي وأوضحت له خجلي وحرجي من هذه الحالة. فطمـأنني انهـا حالـة طبيعية تصيب الجميع، وهو شخصيًا مصاب بها.

حـدث فـي سـفرة مـن سـفراتي، وأنـا فـي ذروة العجلة والاضطراب، أن اكتشـفت بعـد وصـولي للمطـار، إني نسيت حقيبتي اليدوية وجواز سـفري والتـذكرة. فلـم أدر ماذا أفعل، ودخلـت فـي حالـة إضـافية مـن التذبـذب والهذيان، ولـولا تطـوّع أحـد المـودعين بإحضـارها، لمـا استطعت تدبير أمري واللحاق بالطائرة.

فـي تلـك اللحظـات القلقـة، وأنـا أدور وألتفـت هنـا وهنــاك انتظــر المتطــوع ليحضــر حقيبتــي وأتشــبث

بالمودعين، اذا بأحد الأصدقاء المستعجلين والقلقين - أكثر مني - يصل المطار مسرعاً لتوديعي ويبده رسالة، ويطلب مني توصيلها الى قريب له.

فما كان مني إلا أن استلمتها منه بحركة عفوية ووضعتها في جيب سترتي وطمأنته ببضع كلمات على تسليمها حال وصولي.

كان يؤكد لي كلما مرت بضعة دقائق على أهميتها وضرورة توصيلها للشخص المطلوب بمجرد وصولي.

عندما أحضروا حقيبة يدي.. ودعت الجميع وغادرت المطار بحفظ الله ورعايته.. وهناك تمتعت قدر الإمكان بإجازتي مع أهلي وأقربائي، ثم عدت مرة أخرى الى مقر عملي.

فاستقبلني صاحب الرسالة في المطار مع ذات الجمع من الأصدقاء. وبعد تبادل التحية والسلام، سألني:

هل أوصلت الرسالة؟ صدمني سؤاله وأحرجني، فحاولت لملمة شتات أفكاري وسألته بدوري بعد ان أطرقت قليلاً وسط صمت الحاضرين وترقبهم:

أية رسالة؟

أجابني بتعجب ظاهر: الرسالة التي سلّمتها لك قبل أسبوعين عند سفرك في هذا المكان هنا!

ماذا تقول: عن أية رسالة تتكلم؟

صاح بغضب شديد والعجب يرتسم على وجهه: الرسالة التي استلمتها مني ووضعتها في جيب سترتك هذا.

مددت يدي غير مصدّق أتفحص جيب سترتي، فلمست أناملي شيئاً ما.. أخرجته.. فاذا بها رسالة لم

أرها من قبل.

سألته: هل هذه هي؟

أجاب بصرخة ممزوجة بعصبية واضحة: نعم انها هي.

قلت وسط غرق جميع الحاضرين بالضحك: تفضل خذها.

سـياحـة

ولجنا حافلة الركـاب بهـدوء، واحتـل كـل واحـد منـا مكانه المخصص، فجلسـت بجـوار رجـل مـن أهـل تلـك البلاد بلباسه الـوطني التقليـدي وهيئتـه الشـرقية ووجهـه الأسمر الداكن. ومنذ البداية حاولنا التقرّب من بعض، هو يسألني عن بلـدي وشـعبي وطبيعـتهم، وأنـا أسـأله عـن طباع شعبه وعاداتهم. كان حديثًا شيّقًا شجّع مـن حولنـا على الاشتراك بين الحين والآخر، وشـعرت بنفسـي مثـل نجم سينمائي محبوب، فالجميع ينظـر نحـوي باسـتغراب ممـزوج بالإعجـاب الجميـل. كنـت أجيـب علـى أسـئلتهم بشيء من السرور واللطافة، وأنا أتمتع بمشاهدة مناظر الطبيعة الخلابة، وكانوا يستفيضون في الشرح كلما مررنا ببناء قديم او منظر مميز. والحقيقة انـي شـعرت وكـأني في بلدي بـين أهلـي وأصـدقائي مـن خـلال جـو الفـرح والمرح الـذي سـاد الحافلـة. انـه شـعور لطيـف ان يـرى المرء نفسه محط أنظار الحاضرين سابحًا وسـط أمـواج الفخر والزهو بالنفس. فدفعني ذلك الى تجاذب أطـراف الحـديث مـع كـل مـن تـرك مكانـه وتقـرب منـي وأبـدى ملاحظة كبيرة كانت أم صـغيرة. هـذا بالإضـافة الـى مـا كان يقدم لي بـين الحـين والآخـر مـن أصـناف السـجائر الوطنية والمشروبات الغازية وكـل مـا اشـتهر بـه بلـدهم المعطاء الجميل.

لم تمض ساعة علـى تحـرك حافلتنـا حتـى توقفـت عنـد إحـدى نقـاط التفتـيش العديـدة المنتشـرة علـى

الطريق. فصعد رجل بلباسه الرسمي وراح يدقق في أوراق الركاب ووجوههم، وبانت خبرته في عمله واضحة من خلال اختياره من كان يسألهم. وبمجرد مشاهدته وجهي، ترك ما في يده واندفع نحوي وكأنه وجد ضالته، وطلب أوراقي. مددت يدي مقدماً له جواز سفري.

قال لي بعد تفحصه: هذا لا يكفي أعطني إجازة سياحتك داخل البلد.

قلت مستفسراً: أية إجازة؟ أنا لا أعرف عنها شيئاً ولم أسمع بها. ليس معي سوى جواز سفري يحمل فيزة الزيارة مصدّقة من سفارتكم وعليها توقيع قنصلكم.

أجاب: أنا لا أفهم ما تقول. أريد ورقة الإجازة.

قلت: يا رجل.. ان أية ورقة هي أقل شأنا وأهمية من جواز السفر. وأنا كما ترى رجل عربي مثلك وجواز سفري رسمي وحكومي لا شائبة فيه.

قال: لا أفهم.. أريد الورقة المطلوبة، او تنزل معي لمقابلة الشخص المسؤول.

قلت: يا أخي.. ماذا تقول؟ أنا ضيف لديكم، وجئت للزيارة والاستمتاع بضيافة بلدكم الكريم. فلماذا تصرّ على تشويه متعة سفري؟

أجاب بإصرار وعناد: قم وأنزل من الحافلة.

حاولت التفاهم معه بكل الوسائل، فلم أفلح. بل كلما زدت في محاولة إقناعه، كلما زاد في الإصرار والتعنت.

التفت الى رفاق سفري أسألهم التدخل

والمساعدة. ففوجئت بهم وقد ابتلعوا ألسنتهم، وكنت كمن يكلم نفسه، فلا حياة لمن تنادي.

ركّزت اهتمامي على جاري اللطيف الجالس بجانبي، ولكزته بخفة، وسألته بشيء من الرجاء المخلوط بالبراءة لمساعدتي في التفاهم مع هذا الرجل العنيد.

فوجدت كلماتي - والحمد لله - صدى لها في قلبه، وراح يحاول إقناع الرجل، وهذا ما شجّع بقية الركاب على التدخل والحذو مثله.

في النهاية.. قال الرجل صاحب المخ الحجري بصوت عال وهو يبرر موقفه: لقد قبضنا على جاسوس من دولة عدوة قبل أيام متنكراً بشخصية طبيب جاء يدعي مساعدتنا، مستغلا فقر البلد وحالته المتأخرة.. لذلك علينا بالحرص والحذر الشديدين.

هنا.. تعالت أصوات التهليل والتكبير من الركاب تثني على هذا العسكري العظيم وتحييه على هذا الإنجاز الوطني العظيم.

في النهاية.. تركني وعلامات الخيبة تعلو ملامح وجهه الكالح لضياع مثل هذه الفرصة الثمينة في القبض على جاسوس مخرّب مثلي.

عدت الى مقعدي متنفساً الصعداء بعد طول كل ذلك العناء. وقلت للجالس بجواري وأنا أحاول شكره والتودد له وللآخرين:

كان رجلاً شديداً متصلب الرأي، وخشيت الا ينفع معه التوسل والرجاء، يا لعقله الناشف الصلب، اني

أتعجب لوجود أمثالـه، كيـف يسـمح المسـؤولون بتعيـين مثل هذه النوعيات في هذه الوظائف الحساسـة، علـيهم الانتبـاه والحـذر لسـمعة البلـد وصـورته أمـام بقيـة أبنـاء شعوب المنطقة.

وهنا حدّق صاحبي بي كمن وجـد فريسـته، وعلـت وجهـه ابتسـامة لئيمـة حاقـدة صـفراء، ومـدّ يـده ليخـرج بطاقته الشخصـية ويبرزهـا أمـام وجهـي، وفيهـا صـورته بلباسه الرسمي والشـارات والرتـب تمـلأ صـدره وكتفيـه، وقال لي: الآن وقعت أيها الجاسوس المخرب، قم وانزل معي حالاً.. فأنا أتبعك منذ دخولك المطار..

قـراءات..

توقفني أكوام الحروف وأكداسها
متراكمة بعضها فوق بعضها
مرة بتناسقها.. وأخرى بتفارقها
فتستعصي عليّ معانيها وفهمها
أحاول تكرار قراءتها..
أبدأ من جديد.. من أوّلها..
أعيد قراءة سطورها.. أعيد فقراتها
أرجع رأسي للوراء.. من بعيد أنظرها
أقرّبها.. أحدّق بها..
أبحث عن مفقود حروفها أو نقاطها
أحاول تشكيلها
أضرب أخماسها بأسداسها.. ثم أجمعها
أخمّن مغزاها..
لعلّ الكاتب يقصد كذا.. أو لعلّها هكذا..
أيمكن..! ولم لا تكون هكذا؟
المهم.. أريد خلاصتها
دعني أكمل قراءتها
وسأدرك المقصود عند ختامها ونهايتها..
خال الوفاض.. يداي صفرًا أخرجتها.
فلم لا أنتبه وأفيق؟
أم تراه كاتب قدير وعريق؟
ومستواه رقيق ودقيق

وكلماته مستعصية الألوان والبريق
تتوسع في قلبه معانيها وتضيق
أم تراه يكتب للأحجار والصخور وللطريق!؟
أبدا.. انه يكتب لي ولغيري، فلم لا أفيق
لكني لا أفهمها!! وهذا رأي الجار والصديق
إذن.. عليه ان يشرح لي دون ضوضاء وزعيق
أم تراه يقصد مذهبًا أو حزبًا أو فريق؟
إن لم أفهم مقصده بالكتابة، فهناك ألف وسيلة وطريق
وأرجوه ان يترفق بي.. فأنا مسكين رقيق
ولن أنحاز الى أي حزب أو فريق
إنا معشر القرّاء نريد الفهم والتعلّم
نريد أن نعرف كيف نتكلّم
وكيف نرفع مستوانا، دون زهر وحيّة وسلّم
ومن المؤكد ان هذا بالمتبجحين والمّدعين لا يتمم..

تعـارف

أقدم لشخصكم الكريم، صديق قديم،
تربطني به صداقة ومحبة تنبع من الصميم
فهذا الصديق.. يا عزيزي..
قلّ مثله وعدم شبهه وضاع رديفه
ليس في الأرض من يجاريه
ولا في السماء من يدانيه
له من العقل أحجره
ومن الفكر أأخره
ومن الذوق أتفهه
ومن التبلّد مكثره
ومن الغباء أثخنه
حمقه فاق جهله
وظلام فكره يخجل المركوبة تحته
عناده يحني عنق الدب خلفه
والأمل يضمحل أمامه
والرجاء يخيب قدّامه
تعصّبه يخجل أهل الجاهلية
وحماقته تبعث على الأسيّة
صلادة فكره تولي لها الدبر المطيّة
وصلابة ذهنه تعلّم الأميّة

قلّة بضاعته تعدم السرور في الصدور
وتخنق الفرح مع الحبور
شكله مخلوف
وأنفه معقوف
وشعره منتوف
وشاربه ملفوف
وعناده معروف
وتفاهة فكره تزكم الأنوف
وتمسكه برأيه يبدد الصفوف
إن قام هام
وان جلس نام
وان تكلم لام
وان تُرك عام
يستعبده الطعام كالأنعام
فينسيه انتمائه للأنام
وعليكم الرحمة والسلام..

لـمــاذا ؟

تساءلت سعاد في نفسها، وقالت:

يا للزمان القذر، ويا للحياة التعيسة!؟

كيف كنت.. وكيف أصبحت!؟

أين بيتي الجميل؟

أين حياتي الهادئة؟

أين زوجي العزيز؟

أين الاحترام والمحبة؟

لماذا لم يمهله القدر ليبقى معي؟

لماذا تركني وحدي وسط التيار ومضى؟

ماذا أنا فاعلة مع أولادي ببضعة دراهم؟

ءأكل بها؟ أم أشرب بها؟ أم أسكن بها؟

كم أخصص لهذا؟

وكم أترك لذاك؟

كل شيء غال..

الأسعار ترتفع بدون ضابط وقياس!

كم امرأة مثلي؟

أين ذهبت الرحمة؟

أين اختفت القناعة؟

ترى ماذا حصل للناس؟

يا له من زمان حقير!

يعلو فيه السافل ويهبط العزيز؟

الى متى؟ كم..؟ كيف..؟ لماذا..؟

****

- أخبريني.. الى متى ستبقين مستلقية على فراشي؟

متى ستنهضين وتذهبي؟

عندي موعد.. أريد الخروج الآن ...

الشـرطي

حسن رجل شرطة بسيط لا يهمه في هذه الدنيا سوى سعادة زوجته وأولاده وتدبير أمر معيشتهم، يفيق في الصباح نشطًا ليذهب الى عمله دون تأخير ثم يعود في المساء ليجالس عائلته.

أتفق ذات يوم أن تغير دوام عمله الى الفترة الليلية.. فكان عليه قضاء الليل في المخفر يقظاً من المساء حتى الصباح مستعداً لتلبية مهام عمله الطارئة.

وبينما كان الهدوء يسود الجميع، ولا أثر للحوادث أو المنازعات، إذا بجرس الهاتف يرن على مكتب الضابط المناوب، وبعد تبادل بضع كلمات، أصدر الضابط أمره لمن حوله بضرورة مصاحبته للقبض على مجموعة من مرتادي أحد المواخير السرية.

تحركت سيارة الشرطة الى مكان الحادث. فوصلت بعد قليل ووقفت أمام باب بيت تبدو عليه معالم الغنى. تقدم الضابط نحو الباب ليفتحها بعنف وبدخل مسرعاً، وأندفع حسن وبقية الرجال خلفه لأداء واجبهم ولجمع الموجودين وإلقاء القبض عليهم، ولم ينتبهوا لحسن وقد

تغير لون وجهه وأمتقع وهو يمد يده نحو سلاحه ليخرجه ويصـوبه نحـو صـدر إحـدى المقبـوض علـيهن ويرديهـا مضرّجة بدمها.

حـدث كـل ذلـك بسـرعة فاجـأت الجميـع، ولـم يستطيعوا نزع سلاحه من يده الا بعد أطلـق عليهـا النـار عدة مرات.

ووسـط ذهـول الجميـع ودهشـتهم، تمـتم حسـن بصوت متحشرج:

إنها زوجتي أم أولادي..

الحسـد

رغم ترعرع الشقيقين سامي وسعد في بيت واحد، ورغم كل ما فعله والديهما للتوفيق بينهما وتآلف قلبيهما. الا انهما لم يفلحا في مهمتيهما. وبقي الكبير يكره الصغير ويحسده، ولا يترك مناسبة الا ويشاكله بها.

فكّر الوالد بتزويج سامي لعله يتغير تجاه أخيه الصغير. الا ان الحال جاء على عكس المرتجى. فأصبح سامي لا يطيق وجود أخيه في البيت طالما كانت زوجته تقيم معهم في نفس البيت، مما اضطر سعد لقضاء غالبية أوقاته خارج البيت إرضاء لرغبة أخيه.

ذات يوم.. نشبت الحرب، وسيق الرجال والشباب لحمل السلاح، وكان سامي من بينهم. وخلال إحدى المعارك الرهيبة الشرسة، فقد سامي مع العديد من رفاقه، وسجل اسمه ضمن المفقودين.

ومرت الأيام والشهور ولا أثر لسامي. ورزقت زوجته بولدها اليتيم، ولا خبر عن والده.

فكّر الوالد بلمّ شمل البيت الممزق مرة أخرى، وتزويج الأخ الصغير سعد من أرملة أخيه لرعايتها، وتم

ذلك بالفعل، وعاشا سعيدين ورزقا بولد جديد.

ذات ليلة.. استيقظت العائلة على صوت طرقات قوية على باب الدار، فاستيقظ الجميع لهذا الطرق الغريب غير المتوقع، ووسط دهشة الجميع، إذا بالأخ الكبير سامي يقف خلف الباب. وبين دموع الفرح وأصوات القبل، شق صوت رصاص مسدس القادم جوّ البيت وهو يصرع أرملته وشقيقه!!

عامل الكهرباء

محسن عامل كهرباء جيد ذو مهارة عالية، اعتاد منذ

سنين طويلة التعامل مـع الأسـلاك الكهربائيـة وتصـليحها بيديه العاريتين دون فصل التيار، إذ لـم تكـن قـوة التيـار العادية تشكل خطورة على حياته.

ذات مرة، توجه محسن نحو صندوق مـوزع كهربـاء عمومي لإصلاح عطل فيه.. فتح بابه.. وقبل أن يمد يـده لتصـليحه، قـرأ مقـدار القـوة الكهربائيـة المكتوبـة عليـه واطمأن لعدم خطورتها. وفي أجزاء من الثانيـة ووسـط ذهول زملائه، اذا بجسمه يتكور على الأرض مثل قطعـة فحم سوداء دون حراك.

لقد كانت قوة التيار مسجلة على الصندوق خطأ!

مكـالمـة

ذهبت وسمير لزيارة صـديق. وبينمـا نحـن جلـوس،

رنّ جرس هاتفه.. نظر نحو ساعة الجدار وتأفف قائلا:

إنها هي مرة أخرى.. امرأة تزعجني كل يوم، وتلـح عليّ كثيـرًا، ولا أعـرف كيفيـة الـتخلص منهـا. أرجـو مـن أحدكما الرد عليها بدلا مني.. فأنا غير موجود..

رفعت السماعة بتردد، وأخبرتها بعـدم وجـود احـد. لكنهـا لـم تغلـق الخـط، وراحـت تحـاول إطالـة الحـديث معي، مما دفعني لسؤال صديقي سمير بالرد عليهـا بـدلا مني.

أخذ سمير السماعة من يدي وراح يكلمها. ولم يكـد يسمع أو يتفوّه ببضع كلمات، حتـى امتقـع وجهـه. الا انـه حاول جاهدًا تمالك نفسه والتظاهر بالهدوء.

بعد أيام، سمعنا أن سمير طلّق زوجته!

الانتقـام

عندما بقي جـرس الهـاتف يـرن دون انقطـاع.. ولا جواب..

أدرك محمود أن مكروهًا قد حدث لعائلته.

فترك ما في يده، وأسرع متوجهًا نحو بيته..

وبوصوله وجد الجميع قد فارقوا الحياة..

فالحيّة.. لم تجد طريقة أفضل لتنتقم لوليدها الـذي قتلته عائلته، إلا بتسميم إبريق الشاي.

فـي المقـابل

لـي صـديق طبيـب متخصـص بـأمراض المسـالك البولية، وكان تخصصه هذا سببًا لتنـدري وأصـحابي عليـه وعلى مهنته كلما حدثت مناسبة. أما هو فكان رجل مـرح سريع النكتة دائم الابتسامة حلو المعشر لا يغضـبه كثـرة

مزاحنا.

حدث ذات يـوم أن دخـل عليـه مـريض كبيـر السـن بملابس قذرة يشكو علة في أعضائه التناسلية.

فطلب الطبيب منـه خلـع ملابسـه والاسـتلقاء علـى سرير الفحص، ثم تقدم منه وشـرع فـي العمـل.. ينظـر هنا وهناك.. يقلّب ويتفحص مكان العلة يميناً وشمالاً.

أما المريض.. فلـم يسـكت ولـم يكـف عـن التـذمر والشكوى من غلاء كلفة ثمن الفحص وخلو قلوب أطباء هذه الأيـام مـن الرحمـة والشـفقة.. ممـا أفقـد الطبيـب صبره وهدوءه..

وبحركة عصبية انتصب الطبيب وعاد الى الوراء ومد يـده الـى حـزام سـرواله وفتحـه.. ثـم.. وبـدون التفـوه بشـيء.. راح يرخـي بنطالـه لينزلـه الـى ركبتيـه.. بينمـا المريض ينظر اليه متعجباً من سلوكه..

وعندما انكشف الطبيب على المـريض تمامـاً، قـال لمريضه بصوت عال وواضح: هل ترضى ان تأخذ ضـعف ثمن المعاينة، وتكرر ما أعمله معك؟

صبي في عالم المجهول

لي من العمر عشر سنوات

أبي شيخ كبير رحل وتركني منذ سنوات

عمي رجل قاسٍ.. وخالي يعاملني باللكمات

واخوة صغار يتامى تربوا على الصدقات

وأم في عنفوان الشباب دمرتها مصائب الحياة

مدرستي لا أذكر كم مضى على تركها وفات

انها تطلب رسوم ومصروفات

وأنا أحب الدراسة والمعلومات

فمن أين لي ذلك.. هيهات.. ثم هيهات

أمي تمنع تسكعي في الطرقات

فأنا بكرها وقدري تحمل واجبي والمسؤوليات

والشارع يعج بالمجرمين وقطاع الطرقات

هذا يقول لي تعال وذاك يقول ...

قدمي تملؤها الجروح والكدمات

أراقب الطلاب فأموت من الحسرات

قال لي: ما لي أراك تعيش كالحشرات

هل تبحث عن عمل أم تراك تمتهن السرقات

قلت: نعم.. أبحث عن عمل وما به أقتات

قال: أتعمل معي في مصنع للجزمات

قلت: ليتني عرفتك منذ سنوات..

لكنت وفرت على عائلتي مشاكل وملمات

فدخلت بيتًا قديمًا كأنه من الذكريات

ومجموعة أطفال تعمل بمشقة مثل حيوانات.

الفهرس

أسم القصة	الصفحة
1 – السـجين	3
2 – البديـل	6
3 – ولـدي	15
4 – نصف الهدف	19

5 - أرمل لنصف يوم	25
6 – لغـة عالمية	30
7 – عيـن المـاء	35
8 - هـل الأستاذ موجود	41
9 – نبيـل والأسد.. الغبي	47
10 – ضيافة رسمية	54
11 - الحـوت	61
21 – رفيق سـفري	65
31 – مصادفات	67
41 – الكابـوس	71
15 – محـاورة	76
16 – المظـلـوم	79
17 – المسافر كالمجنون	82
81 – سـياحة	85
91 – قـراءات	89

أسم القصة	الصفحة
20 – تعـارف	91
21 – لمــاذا	93
22 – الشـرطي	95
32 – الحسـد	79

42 – عامل الكهرباء 99
52 - مكـالمـة 100
62 – الانتـقـام 101
27 – في المقـابل 102
28 – صبي في عالم مجهول 031